ذو النون المصري

مواقف ومواعظ
مـن حيـاة التابعيــن

[19]

ذو النون المصري

ذو النون المصري

نسبه:

هو: ثوبان بن إبراهيم.

وقيل:

الفيض بن إبراهيم.

وقيل:

ذو النون إبراهيم المصري الأخميمي - نسبه إلى أخميم بصعيد مصر - وذو النون لقب.

كنيته:

يكنى: أبا الفيض.

أصله:

من النوبة - بضم النون - وهي بلاد واسعة جنوب أسوان.

وقيل:

من قرية أخميم من قرى الصعيد على شاطئ النيل، من أعمال محافظة قنا.

كان أبوه إبراهيم مولى لإسحاق بن محمد الأنصاري، وكان له أربعة بنين: ذو النون، وذو الكف، عبد الباري، والهييسع.

وكان ذو النون أوحد وقته علمًا وورعًا وحالاً وأدبًا.

وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك.

كان حكيمًا فصيحًا زاهدًا متعففًا ورعًا.

الخروج إلى مصر:

سمع ذو النون يومًا صوت لهو ودفاف فقال:

- ما هذا؟

قيل:

- عرس.

وسمع بجانبه بكاءً وصياحًا فقال:

- ما هذا؟

فقيل:

- فلان مات.

فقال:

- أعطى هؤلاء فما شكروا، وابتلى هؤلاء فما صبروا.

وأقسم أن لا يبيت بالبلد فخرج إلى مصر فقطنها.

سبب توبته:

كان ذو النون يعيش الحياة العادية للشبان لا يعبأون بوقت يمر لا يشغلوه بما يفيد، ولا تعني الكلمة أنه كان عاصيًا سيئ الخلق فهو يقول:

- وخرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام، وكان معي بضيعة في المركب مع تجار مصر.

فهذا يدل على أنه اشتغل في شبابه بالتجارة.. فكانت هذه الحجة الأساس في اتجاهه إلى الله.

وقيل:

سُئِلَ أبو الفيض عن سبب توبته فقال:

خرجت من مصر إلى بعض القرى، فنمت في الطريق في بعض

الصحاري، ففتحت عيني فإذا أنا بقنبرة - طائر مثل العصفور - عمياء سقطت من وكرها - عشها - على الأرض، فانشقت الأرض فخرجت منها سكرجتان، إحداهما ذهب والأخرى فضة، وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا.

فقلت:

- حسبي، قد تبت.

ولزمت الباب إلى أن قبلني.

ذو النون والمتوكل:

كان لذي النون أعداء، فلما تكلم أبو الفيض بعلوم لدنية لا علم لأهل مصر بها، وشوا بها إلى خليفة بغداد، فحمل إليه في جماعة مغلولاً مُقيدًا فقدم للقتل.

فكلم الخليفة فأعجبه، فأطلقه ورفقته وقال:

- إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم.

ولكن أهل مصر قوم طيبون، فلما رأوا ذا النون وفي يده الغل وفي رجليه القيد أخذوا يبكون وإذا بأبي الفيض يعلن:

- هذا من مواهب الله ومن عطاياه، وكل فعاله عذب حسن طيب.

ثم أخذ ينشد مخاطبًا الله سبحانه بشعره:

::
لك من قلبي المكان المصون : كل هم على فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلا :: فيك والصبر عنك ما لا يكون
:

وقيل:

لما حمل ذو النون من مصر في الحديد إلى بغداد لقيته امرأة زمنة.

فقالت:

- إذا دخلت على المتوكل فلا تهبه، ولا تر أنه فوقك، ولا تحتج لنفسك محقًا كنت متهمًا، لأنك إن هبته سلطه الله عليك، وإن حاجك عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالاً، لأنك باهت الله فيما يعلمه، وإن كنت بريئًا فادع الله أن ينتصر لك، ولا تنتصر لنفسك.

فقال لها:

- سمعًا وطاعة.

يقول أبو الفيض:

فلما دخلت عليه سلمت عليه بالخلافة.

فقال لي:

- ما تقول فيما قيل فيك من الكفر والزندقة؟

فسكت.

فقال وزيره:

- هو حقيق عندي بما قال فيه.

ثم قال لي:

- لم لا تتكلم؟

فقلت:

- يا أمير المؤمنين: إن قلت لا كذبت المسلمين، وإن قلت نعم كذبت على نفسي بشيء لا يعلمه الله تعالى مني، فافعل أنت ما ترى، فإني غير منتصر لنفسي.

فقال المتوكل:

- هو رجل برئ مما قيل فيه.

فخرجت إلى العجوز فقلت لها:

- جزاك الله عني خيرًا، فعلت ما أمرتني به، فمن أين لك هذا؟

فقالت:

- من حيث خاطب به الهدهد سليمان عليه السلام.

تريد ما قاله الهدهد:

{وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } [سورة النمل الآية: ٢٢].

أي عن مشاهدة، وتريد قول الهدهد:

-{أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ} [سورة النمل الآية: ٢٢].

وقيل:

سعوا بذي النون إلى أمير المؤمنين المتوكل، فاستحضره من مصر، فلما دخل أبو الفيض عليه، وعظه.

فبكى المتوكل ورد أبا الفيض مكرمًا.

وكان أمير المؤمنين المتوكل إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكي، ويقول:

- إذا ذكر أهل الورع فحيِّ هلا بذي النون.

بعض سياحاته:

ذكر الله تعالى أن من أوصاف المؤمنين (السائحون) فمن هم السائحون؟

إنهم طلبة العلم لأنهم يسيحون في الأرض لطلبه.

وسأل رجل خاتم الأنبياء ﷺ.

- يا رسول الله: ائذن لي في السياحة.

فقال أبو القاسم ﷺ :

- **سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله** - (رواه أبو داود).

وكلمة سياحة كلمة شريفة وصف الله عز وجل بها المؤمنين، وهي تدل على معنيين:

1 - السفر من أجل طلب العلم فقد أشار تبارك وتعالى بالعلم والعلماء في كتابه العزيز.

وقد تحدث النبي أوتي جوامع الكلم عن العلم والعلماء وبين أن العلماء ورثة الأنبياء.

2 - إنه السفر تعبدً واعتبارًا وعظة واستجمامًا روحيًا.

في بعض سياحاته:

وقال ذو النون: رأيت في سياحاتي شيخًا، فقلت: كيف الطريق إلى الله؟..

قال: دع طريق الخلاف والاختلاف.

قلت: أليس اختلاف العلماء رحمة؟

قال: إلا في تجريد التوحيد.

قلت: ما تجريده؟

قال: فقدان رؤية ما سواه لوجدانه.

قلت: أو ليس من عرف الله طال همه؟

قال: بل من عرفه زال همه.

قلت: هل يكون العارف مسرورًا؟

قال: وهل يكون محزونًا؟

قلت: أليس من عرف الله صار مستوحشًا؟

قال: معاذ الله، بل يكون مهاجرًا متجددًا.

قلت: وهل يأسف العارف على شيء غير الله؟

قال: وهل يعرف الله فيأسف عليه؟

قلت: وهل يشتاق إلى ربه؟

قال: وهل يغيب عنه طرفة عين حتى يشتاقه؟

قلت: ما اسم الله الأعظم؟

قال: أن تقول (الله) وأنت تهابه.

قلت: وكثيرًا ما أقوله ولا تداخلني هيبة.

قال: لأنك تقول الله من حيث أنت لا من حيث هو.

قلت: عظني.

قال: حسبك من الموعظة علمك بأنه يراك.

قلت: فما تأمرني؟.

قال: لإطلاعه عليك في كل أحوالك لا تنسه.

وعن إسرافيل قال: سمعت ذا النون يقول:

نظرت إلى رجل في بيت المقدس قد استغرقه الوله، فقلت له: ما الذي أثار منك ما أرى؟

قال: ذهب الزهاد والعباد بصفو الإخلاص، وبقيت في كدر الانتقاص، فهل من دليل مرشد أو حكيم موقظ؟

في نواحي الشام:

ومن وقائعه في سياحاته ما حكى قال:

بينما أنا أسير في نواحي الشام إذ وقعت على روضة خضراء، وإذا بشاب يصلي تحت شجرة، فسملت، فأوجز في صلاته ولم يرد، ثم كتب بإصبعه في الأرض:

::
منع اللسان من الكلام لأنه : سبب الفساد وجالب الآفات
فإذا نطقت فكن لربك ذاكرًا :: وإذا سكت فعد موتك آت
:

قال: فبكيت وكتبت بأصبعي في الأرض:

وما من كاتب إلا سيبلى :: ويبقى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء : يسرك في القيامة أن تراه

::
:

فصاح الشاب فمات، فقمت لأجهزه وأدفنه، وإذا بقائل: خل عنه **فإن الله وعده أن يتولاه إلا ملائكته**، فالتفت فلم أره.

مؤمن ليس له درهم:

قال ذو النون المصري:

بينما أنا سائر في بعض الطرق، فإذا فتى حسن الوجه أثر التهجد بين عينيه.

فقلت:

- حبيبـي من أين قدمت؟

قال الفتى:

- من.....

قال أبو الفيض:

- وإلى أين؟

قال الفتى:

- إلى عنده.

فعرضت عليه النفقة، فنظر إليَّ م غضبًا، ثم ولى وأنشأ يقول:

::
وكافر بالله أمواله : تزداد أضعافًا على كفره
وم ؤمن من ليس له درهم :: يزداد إيمانًا على فقره
لا خير فيمن لم يكن عاقلاً : يمد رجليه على قدره
::
:

يرحمك الله:

كان بعض المتعبدين مع ذي النون بمكة، قال له:

- يرحمك الله، لِمَ صار الوقوف بالجبل - جبل الرحمة بعرفة - ولم يصر بالكعبة؟

قال ذو النون المصري:

- لأن الكعبة بيت الله والجبل باب الله، فلما قصدوه وافدين أوقفهم بالباب يتضرعون.

فقيل له:

- يرحمك الله، فالوقوف بالمشعر الحرام كيف صار بالحرم؟

قال ذو النون:

- لما أذن لهم بالدخول إليه أوقفهم بالحجاب الثاني، و هي المزدلفة، فلما طال تضرعهم، أمرهم بتقريب قربانهم فتطهروا بها من الذنوب التي كانت لهم حجابًا دونه، وأذن بالزيادة إليه على طهارة.

قيل له:

- فَلِمَ كره الصوم أيام التشريق - ثلاثة أيام بعد يوم النحر وهي أيام أكل وشرب - ؟

قال أبو الفيض:

- لأن القوم - الحج اج - زاروا الله وهم في ضيافته ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من أضافه.

قيل له:

- يرحمك الله، فتعلق الرجل بأستار الكعبة لأي معنى؟

قال ذو النون المصري:

- هو مثل الرجل تكون بينه وبين أخيه جناية فيتعلق بثوبه ويستجدي له ويتضرع إليه ليهب له جرمه وجنايته.

علمت أنها امرأة:

قال ذو النون المصري:

خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام، فبينما أنا في الطوا ف، إذا بشخص متعلق بأستار الكعبة، و إذا هو يبكي ويقول في بكائه:

كتمت بلائي من غيرك وبحت بسر ي إليك، واشتغلت بك عمن سواك، عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك؟ ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك؟

ثم أنشأ يقول:

ذوقتني طيب الوصال فزدتن ي :: شوقًا إليك مخامر الحسرات

ثم أقبل على نفسه، فقال:

- أمهلك فما أرعويت، وسترت عليك فما استحييت، وسلبك حلاوة المناجاة فما باليت.

عزيز ي: ما لي إذا قمت بين يديك أل قيت على النعاس ومنعتن ي حلاوة الخدمة؟

ثم أنشأ يقول:

روعت قلبي بالفراق فلم أجد :: شيئا أمَرَّ من الفراق وأوجعا
حسب الفراق بأن يفرق بيننا :: ولطالما قد ك نت منه مُفَزعا

يقول ذو النون المصري:

- فلم أتمالك أن أتيت الكعبة مستخفيًا، فلما أحس بي تجلل - تغطى - بخمار كان عليه.

ثم قال:

- يا ذا النون غض بصرك من مواقع النظر، فإني حرام - أي محرم

-.

يقول أبو الفيض:

فعلمت أنها امرأة.

فقلت:

- يا أمة الله: مم يجوي الهموم قلب المحب؟

قالت:

- إذا كانت للتذكار محاورة، وللشوق محاضرة.

يا ذا النون: أما علمت أن الشوق يورث السقام، وت جديد التذكار يورث الأحزان؟

ثم أنشأت نقول:

لم أذق طعم وصلك حتى ::: زال عن ي محبت ي للأنام

ثم أنشأت تقول:

نعم المحب إذا تزايد وصله ::: وعلت محبته بع ق ب وصال

ثم قالت:

أوجعتني، أما علمت أنه لا يبلغ إليه بترك من دونه؟

أما علمت أن لله عبادًا لا يشغلهم سواه لا يميلون إلى ذكر غيره؟

طوبى للعارفين:

قال ذو النون المصري:

أوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام -:

يا موسى: كن كالطير الوحدان ي يأكل من رؤوس ا لأشجار ويشرب من ماء القراح، إذا جنه الليل أوى إلى كهف من الكهو ف استئناسًا بي، واستيحاشًا ممن عصاني.

يا موسى: إني آليت على نفسي أن لا أتم لمة بر - قليل من البر - من دوني عملاً.

يا موسى: لأقطعن أمل كل م ؤمل غير ي، ولأقصمن ظهر من استند إلى سواى، ولأطيلن وحشة من استأنس بغيري، ولأعرضن عن من أحب حبيبًا سواي.

يا موسى: إن لي عبادً ا إن ناجوني أصغيت إليهم، وإن نادوني أقبلت عليهم، وإن أقبلوا عليَّ أدنيتهم، وإن دنوا مني قربتهم، وإن تقربوا مني التثفتهم، وإن والوني واليتهم، و إن صافوني صافيتهم، وإن عملوا لي جا زيتهم، هم في حما ي وبي يفتخرون و أنا مدبر أمورهم، وأنا سائس قلوبهم، وأنا متولي أحوالهم، لم أجعل لقلوبهم راحة في شيء إلا في ذكري، فذكري لأسقامهم شفاء، وعلى قلوبهم ضياء، لا يستأنسون إلا بي، ولا يحطون رحال قلوبهم إلا عندي، ولا يستقر قرارهم في الإيواء إلا إليَّ.

فقيل له:

يا أبا الفيض: من هم؟

قال ذو النون المصري:

هم يا أخي قوم قد ذوب الحزن أكبادهم، وأنحل الخوف أجسامهم، وغير السهر ألوانهم، وأقلق البعث قلوبهم، قد سكنت أسرارهم إليه، وتذللت قلوبهم عليه، فنفوسهم على الطاعة لا تسلو، وقلوبهم على ذكره لا تخلو، وأسرارهم في الملكوت تعلو ال خشوع يخشع لهم إذا سكتوا، والدموع تخبر عن خ في حرقتهم إذا كمدوا، قدسوا فرج الشهوات بحلاوة المناجاة، فليس للغفلة عليهم مدخل، ولا للهو فيهم مطمع، قد حجب التوفيق بينهم وبين ا لآفات، وحالت العصمة بينهم وبين اللَّذات، فهم على بابه يكون، وإليه يكون، ومنه يكون.

فيا طوبى للعارفين.

ما أغنى عيشهم.

وما ألذ شربهم.

وما أجل حبيبهم.

اسم الله الأعظم:

قال يوسف بن الحسين:

بلغني أن ذا النون يعلم اسم الله الأعظم - اسم الله الأعظم الذي إذا دُعيَّ به أجاب - فخرجت من مكة قاصدً ا إليه حتى وافيته في جيزة مصر، فلول ما بصر بي ورآني وأنا طويل اللحية وفي يدي ركوة طويلة - إناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء والجمع ركوات وركاء - متزر بمئزر وعلى كتف ي مئزر وفي رجل ي ناموسة، فاستشنع منظر ي، فلما سلمت عليه كأنه ا زدراني، ولم أر منه تلك البشاشة، فقلت في نفسي:

- ما تدرى مع من وقعت؟

فجلست ولم أبرح من عنده، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة، جاءه رجل من المتكلمين فناظره في شيء من الكلام، فاستظهر على ذي النون.

فاغتنمت ذلك وبركت بين يديهما - أمامهما - واستلبت المتكلم إلىَّ وناظرته حتى قطعته - غلبته - ثم ناظرته بش يء لم يفهم كلا مي ، وتعجب ذو النون - وكان شيخًا وأنا شاب - فقام من مكانه وجلس بين يدي، وقال لي:

- اعذرني، لم أعرف محلك من العلم، وأنت آثر الناس عندي.

فما زال بعد ذلك يجلني ويكرمني ويرفعني عن جميع أصحابه.

وانصرم عام.

فقلت له بعد ذلك:

- يا أستاذ: أنا رجل غريب وقد اشتقت إلى أهلي وقد خدمتك سنة وقد وجب حق ي عليك وقيل لي: إنك تعرف اسم الله الأعظم، وقد جربتني وعرفت أني أهل لذلك، فإن كنت تعرفه، فعلِّمني إياه.

فسكت ذو النون عني ولم يجبني بشيء، وأوهمني أنه لعله يقول لي ويعلمني.

ثم سكت ذو النون عني ستة أشهر.

فلما كان بعد ستة أشهر من يوم مسألتي إياه، قال لي:

- يا أبا يعقوب: أليس تعرف فلانًا صديقنا بالفسطاط الذي يجيئنا؟ وسمى لي رجلاً، فقلت:

- بلى.

فأخرج ذو النون إليَّ من بيته طبقًا فوقه مكبة - غطاء - مشدود بمنديل، وقال لي:

- أوصل هذا إلى من سميت لك بالفسطاط.

فأخذت الطبق، فإذا هو طبق خفيف يدل على أن ليس في جوفه شيء.

فلما بلغت الجسر الذي بين الفسطاط والجيزة، قلت لنفسي:

- ذو النون يوجه إلى رجل بهدية وهذا أري طبقًا خفيفًا، لأبصرن أي شيء فيه.

فحللت المنديل ورفعت المكبة فإذا **فأرة قد قفزت من الطبق**.

فاغتظت، وقلت لنفسي:

- إنَّما سخر بي ذو النون ولم يذهب وهمي إلى ما أراد في الوقت.

فجئت إليه وأنا مغضب، فلما رآني بتسم وعرف القصة، وقال:

- يا مجنون: ائتمنتك في فأرة فخنتني، أئتمنك على اسم الله الأعظم؟! قم عني، فارتحل ولا أراك بعد هذا.

متى أستقبح الدنيا؟

يقول سهل بن عبد الله:

سألت أبا الفيض:

- متى تخلص لله صلاتي؟

قال ذو النون المصري:

- إذا سكنت معادن الأنوار من قلبك، ونفذته في ملكوت همك

قلت:

- متى يتم زهدي بعد ورعي؟

قال أبو الفيض:

- إذا جعلت الفرض لك معلمًا، وأقمت الطاعة لك مفهمًا.

قلت:

- فمتى أومن؟

قال ذو النون المصري:

- إذا اشتمل الفرض على أمرك، وملكت الطاعة على نفسك.

قلت:

- متى أتوكل؟

قال أبو الفيض:

- اليقين إذا تم سمى توكلاً.

قلت:

- متى تم حبي لربي؟

قال ذو النون المصري:

- إذا سمجت الدنيا - قبحت، سمج: قبح - في عينيك، وقذفت أملك فيها بين يديك - أمامك -.

قلت:

- فمتى أخاف ربي؟

قال أبو الفيض:

- إذا سرحت بصرك في عظمته، ومثلت لنفسك أمثال رقمته.

قلت:

- متى يتم صومي؟

قال ذو النون المصري:

- إذا جوعت نفسك من البغضاء، وأمت لسانك من الفحشاء.

قلت:

- فمتى أعرف ربي؟

قال أبو الفيض:

- إذا كان لك جليسًا ولم تر لنفسك سواه أنيسًا.

قلت:

- فمتى أحب ربي؟

قال ذو النون المصري:

- إذا كان ما أسخطه عندك أمر من الصبر.

قلت:

- فمتى أشتاق إلى ربي؟

قال أبو الفيض:

- إذا جعلت الآخرة لك قرارًا، ولم تسم الدنيا لك مسكنًا ودارًا.

قلت:

- فمتى يشرك في بغض الدنيا؟

قال ذو النون:

- إذا جعلت الدنيا طريق مخافة لا تتلفت إلى ما قطعت منها وجعلت الآخرة سراحة مأمونة لا تأمن إلا النزول فيها.

قلت:

- فمتى أحب لقاء ربي؟

قال أبو الفيض:

- إذا كنت تقدم على حبيب ونصير على أمر قريب.

قلت:

- فمتى أستلذ الموت؟

قال ذو النون المصري:

- إذا جعلت الدنيا خلف ظهرك، وجعلت الآخرة نصب عينيك.

قلت:

- فمتى أرقى شهوات مطاعم الأرض؟

قال أبو الفيض:

- إذا خالط قلبك الملكوت ومزج في سرائر الجبروت.

قلت:

- فمتى تطيب معرفتي؟

قال ذو النون:

- إذا استوحشت من الدنيا واشتد فرحك بنزول البلاء.

قلت:

- فمتى أستوحش الدنيا؟

قال أبو الفيض:

- إذا علمت أن زينتها فساد كل معنى، وأن محاسنها تفضي - تؤدي - إلى كل حسرة.

قلت:

- فمتى أكتفي بأهون الأغذية؟

قال ذو النون المصري:

- إذا عرفت هلاك الشهوات وسرعة انقطاع عذوبة اللَّذات.

قلت:

- فمتى قنوع التمام؟

قال أبو الفيض:

- إذا كان زخرت الدنيا عندك صغيرًا، وكان خوف الآخرة لك ذكرًا.

قلت:

- فمتى أستحق ترك الجمع؟

قال ذو النون المصري:

- إذا عرفت أنك منقول إلى معاذ وأنك مأخوذ بتبعات العباد.

قلت:

- فمتى آمر بالمعروف؟

قال أبو الفيض:

- إذا كانت شفقتك على غيرك وخالفت العباد لمحبة ربك.

قلت:

- فمتى أوثر الله ولا أوثر عليه سواه؟

قال ذو النون المصري:

- إذا أبغضت فيه الحبيب، وجانبت فيه القريب.

قلت:

- فمتى أفزع إلى ذكره وآنس شكره؟

قال أبو الفيض:

- إذا سررت ببلائه وفرحت بنزول قضائه.

عند محاسبة النفوس:

قال ذو النون المصري:

وصف لي رجلٌ بالمغرب وذكر لي من حكمته وكلامه ما حملني على لقائه، فرحلت إليه إلى المغرب، فلقمت على بابه أربعين صباحًا على أن يخرج من منزله إلى المسجد ويقعد، فكان يخرج وقت الصلاة يصلى ثم يرجع كالواله لا يكلم أحدًا.

فقلت له يومًا:

- يا هذا: إني مقيم هاهنا منذ أربعين صباحًا لا أراك تكلمني.

فقال لي:

- يا هذا: لساني سبع إن أطلقته أكلني.

فقلت له:

- عظني رحمك الله بموعظة أحفظها عنك.

قال:

- وتفعل؟

قلت:

- نعم، إن شاء الله.

قال:

لا تحب الدنيا، وعدّ الفقر غنى، والبلاء من الله نعمة، والمنع من الله عطاءه والوحدة مع الله أنسًا، والذل عزًا والطاعة له حرفة، والتوكل معاشًا، والله تعالى لكل شديدة عدة.

ثم مكث بعد ذلك شهرًا لا يكلمني.

فقلت له:

- رحمك الله، إني أريد الرجوع إلى بلدي، فزدني في الموعظة.

فقال:

اعلم أن الزاهد في الدنيا قوته ما وجد، ومسكنه حيث أدركه، ولباسه ما ستر، والخلوة مجلسه، والقرآن حديثه، والله الجبار العزيز أنيسه، والذكر رفيقه، والصمت جنته - وقايته - والخوف سجيته، والشوق مطيته، والنصيحة نهمته - شهوته ورغبته -، والصبر وساده، والصديقون إخوانه، والحكمة كلامه، والعقل دليله، والجوع أدمه - ما يؤدم به -، والبكاء دأبه، والله عز وجل عدته.

قلت:

- بما تبين الزيادة من النقصان؟

قال:

- عند المحاسبة للنفوس.

حقيقة التوبة:

قال ذو النون المصري:

حقيقة التوبة: أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار، وأن تضيق عليك نفسك، قال تعالى في الثلاثة الذين خُلِّفُوا

عن - غزوة تبوك -: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فهجرهم النبي ﷺ والمسلمون خمسين يومًا، ثم جاءت توبتهم.

{وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾} [سورة التوبة الآية: ١١٨].

فالتائب، دائم التأسف، كثير التلهف، يُعرف من بين أمثاله بنبوله، ويستدل على حاله بنحوله.

انفرد العبد بمولاه:

قال أبو الفيض:

حججت سنة إلى بيت الله الحرام، فضللت عن الطريق، ولم يكن معي ماء ولا زاد فأشرفت على الهلكة، فلاحت لي أشجار كثيرة ومحراب، فطرحت نفسي في ظل شجرة، فلما غربت الشمس إذا أنا بشاب متغير اللون نحيل يؤم المحراب، فركل برجله ربوة من الأرض فظهرت عين تبض بماء عذب، فشرب وتوضأ وقام في محرابه.

فقمت إلى العين فشربت ماء عذبًا وتوضأت وقمت أصلي بصلاته، حتى برق عمود الصبح، فلما رأى الصبح وثب قائمًا على قدميه ونادى بأعلى صوته:

- ذهب الليل بما فيه، وأقبل النهار بدواهيه ولم أقض من خدمتك وطرًا، خسر من أتعب لغيرك بدنه وألجأ إلى سواك همه.

ولما أراد الشاب أن يمضي، ناديته:

- بالذي منحك لذيذ الرغب وأذهب عنك ملال التعب إلا خفضت لي جناح الرحمة فإني غريب أريد البيت الحرام، وقد ضللت.

فقال الشاب:

- يا بطال، وهل قطع برفده - وفد الرحمن إلى البيت الحرام - دون البلوغ إليه؟

ثم قال:

- ابتعني.

فرأيت الأرض تطوى تحت أرجلنا حتى رأيت المحجة - بيت الله الحرام - وسمعت ضجة.

فقال الشاب:

- ها - حرف تنبيه - قومك.

ثم أنشأ يقول:

من عامل الله بتقواه وكان في الخلوة يراه
سئل أسًا من صفا حبه سلبه لذة دنياه
فأبعد الخلق وأقصاهم وانفرد العبد بمولاه

من صفات أهل الجنة:

وعظ أبو الفيض يومًا، فأتت إليه امرأة يُقال لها: **ريحانة**، فقالت له:

- يا مصري: صف لي الجنة وما أعد الله تعالى فيها لأوليائه؟

قال ذو النون المصري:

يا هذه: إن الجنة ما لا يحيط به معرفة عارف، ولا يأتي عليه وصف واصف، لكن سأذكر لك بعض ما أعد الله عز وجل فيها لو ليٍّ من أولياء الله تعالى:

إن في الجنة مرجًا - المرج: الأرض الواسعة - أفيح - الأفيح: كل موضع واسع - من الفضة البيضاء، في وسط المرج قصر من الذهب

الأحمر، في وسط القصر قبة من الياقوت الأحمر، في وسط القبة سرير من الذهب مرصع بالجوهر، يخرج من تحت السرر أربعة أنهار، نهر من ماء غير آسن - غير متغير الرائحة -، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر لذ ة للشاربين، ونهر من عسل مصفى، وعلى السرر فرش من السندس والإستبرق، وعلى الفُر ش جارية لو أطلعت معصمها في ليلة مظلمة لأضاءت الدنيا على من فيها، وإلى جانبها كلام أبيض أمرد أغيد له طرف أحور وخد أزهر ووجه أ نور ودلال مليح ولسان فصيح على طول آدم، وحُسْن يوسف عليه السلام، وسن عيسى عليه السلام، وخُلق محمد ﷺ، فيا حسنه في خلوته مع كعوب لعوب، وقد هبت الأرياح وعاشت الأرواح، وتضاعف الحبور - السرور - ودوام السرور، واطمانوا في جوار الغفور.

فلما سمعت ريحانة ما وصفه أبو الفيض، قالت:

- يا مصري: يكفيك هذا فقد قتلتني.

ثم قالت:

أبي الحب أن يخفى وقد كتمته ... فأصبح عندي قد أناخ وطنبا
فلما أسرى عزف النسيم ... سرت نحوه روح ي إلى معهد
ب ذكركم ... الصبا

دواء الزلل:

وصف لأبي الفيض رجل من الع بـَّاد باليمن، فسار إليه ومعه جماعة من الناس يقصدون زيادته، فيهم شاب به نحول من غير سقم، واصفرار من غير ألم، من آثار العبادة ، فلما وصلوا إلى الرجل، سلَّمُوا عليه.

قال الشاب:

- يا شيخ: ما دواء الزلل؟

قال الشيخ:

- **قطع الأمل، ومبادرة الأجل بالكد والعمل.**

فقال الشاب:

- فما علامة الخوف من الله؟

قال الشيخ:

- يؤمنك حتى يستوي عندك الهر - القطة - والأسد.

فسقط الشاب م غشيًا عليه، والشيخ قائم ينظر إليه ، فلما أفاق الشاب، قال:

- **يا شيخ: ومتى يخاف العبد من الله؟**

قال الشيخ:

- **إذا عرفه.**

ثم غاب عنهم فلم يروه.

الرضا من الله:

نزل شاب من خرا سان على أبي الفيض، فأقام أسبوعًا لا ي أكل شيئًا، فلما كان بعض الأيام وقف سائل بباب ذي النون المصري، فقال له الشاب:

- يا هذا: لو قصدت الله لأغناك.

ثم تساءل:

- ما تريد؟

قال السائل:

- أريد ثوبًا يواري عورتي، وشيئًا من الطعام أَسُدُّ به جوعتي.

فوثب الشاب الخراساني إلى المحراب وصلى ركعتين.

ثم أتى السائل بطبق جديد فيه طعام وثوب جديد، فلبس السائل

الثوب وأكل من الطعام.

فقال ذو النون المصري:

- يا غلام: لك عند الله هذه المنزلة ولك اليوم عندي أسب وع لم تأكل فيه شيئًا؟

فقال الخراساني:

- يا ذا النون: كيف تبسط الألسن إلى المساءلة؟ والقلوب مملوء ة بالرضا؟

السير:

كان ذو النون بن إبراهيم المصري يجلس والنا س حوله يبكرن وشاب يضحك، فقال له أبو الفيض:

- ما لك أيها الشاب؟ الناس يبكون وأنت تضحك؟

فأنشأ الشاب يقول:

كلهم يعبدون من خو ف نار ... ويرون النجاة حظًا ا ج زيلاً
ليس في الجنان والنار رأى ... أنسًا لا أبتغي بحب ي بد يلاً

فقيل له:

فإن طردك فماذا تقول؟

فأنشا الشاب يقول:

فإذا لم أجد من الحب واص لاً ... رمت في النار منزلاً ومقي لاً
ثم أ زعجت أهلها ببكائ ي ... بكرة في ضرامها وأص يلاً
معشر المشركين نوحوا عليَّ ... أنا عبد أحببت مولى جلي لاً
لم أكن في الذي ادعيت محقا ... فجزان ي به الع ذاب الطويلا

وكان شاب يحضر مجلس ذي النون بن إبراهيم المصري مدة، ثم انقطع زمانًا، ثم حضر عنده وقد اصفر لونه ونحل جسمه وظهرت آثار العبادة والاجتهاد عليه، فقال له أبو الفيض:

- يا فتى: ما الذي أكسبتك خدمة مولاك واجتهادك من المواهب التي منحك بها فوهبها لك واختصك بها؟

فقال الفتى:

- يا أستاذ: وهل رأيت عبدً ا اصطنعه مولاه من بين عبيده واصطفاه وأعطاه مفاتيح الخزائن، ثم أسر إليه سرً ا يحسن أن يفشي ذلك السر؟

ثم أنشأ يقول:

من شاوروه ف أبدى السر مجتهدً ا ... لم ي أمنوه على الأسرار ما عاشا
وباعدوه فلم يسعد ب ق ربهم ... وأبدلوه من ا لإيناس إيحاشا
لا يصطفون م ذيعًا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

حياك الله بالسلام:

كان ذو النون المصري ومعه صاحب في تيه بنى إسرائيل، فرأى أبو الفيض امرأة عليها مدرعة من شعر وخمار من صوف، وفي كفها عكاز من حديد، فقال ذو النون المصري:

السلام عليكم ورحمة الله.

فقالت المرأة:

- وعليك السلام، ما للرجال وخطاب النساء، عافاك الله؟

قال أبو الفيض:

- أخوك ذو النون المصري.

فقالت المرأة:

- مرحبا حياك الله بالسلام.

فقال ذو النون بن إبراهيم المصري:

- ما تصنعين هنا؟

قالت المرأة:

كلما أتيت إلى بلدة يعصى فيها الحبيب ضاق علىَّ ذلك البلد، فـأنا **أطلب بقعة طاهرة أخر عليها ساجد ة أناجيه بقلب ذاب من شدة الشوق إلى لقائه.**

فقال أبو الفيض:

- ما سمعت أحدً ا يذكر الحبيب أحسن من ذكرك، ف أى شيء المحبة؟

قالت المرأة:

- سبحان الله! أنت الحكيم الواعظ وتسألني؟

أول المحبة يبعث على الكمد الدائم، حتى إذا وصلت أرواحهم إلى أعلى الصفا - الحجر الصلد الضخم - جرعهم من محبته لذيذ الكؤوس.

ثم صرخت وخرت مغشيًا عليها، فلفاقت وهي تقول:

أحبك حبين: حب الرضا :: وحبً ا لأنك أهل لذ اك
فأما الذي هو الرض ا : فـذكر شغلت به عن سواك ا
وأما الذي أنت أهل له :: فكشفك للحجب حتى أراكا
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي : ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

أجَلُّ من رأيت:

كان ابن ملوك، شيخًا كبيرًا رأى ذا النون المصري، فسأله:

- من أجلُّ من رأيت؟

قال أبو الفيض:

- ما رأيت أجل من امرأة رأيتها بمكة يُ قال لها: **فاطمة النيسابورية**، وكانت تتكلم في فهم القرآن، وتعجبت منها.

فسرأل ابن ملوك ذا النون عنها؟

فقال أبو الفيض:

- هي ولية من أولياء الله عز وجل وهي أستاذي.

سمعتها تقول:

من لم يكن الله عز وجل منه على بال، فإنه يتخطى في كل ميدان ويتكلم بكل لسان، ومن كان الله منه على بال أخرسه إلا عن الصدق، وألزمه الحياء منه والإخلاص.

قال ابن ملوك:

- ماذا قالت أيضًا؟

قال ذو النون بن إبراهيم المصري:

قالت: الصادق المقرّب في بحر تضطرب عليه أمواج، يدعو ربه دعاء الغريق يسرأل ربه الخلاص والنجاة.

من عمل لله على المشاهد فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص.

دار السلام:

قال ذو النون بن إبراهيم المصري:

إن لله عبادًا أسكنهم دار السلام، فلخمصوا - الخمصة: الجوعة، المخمصة: المجاعة - البطون عن مطاعم الحرام، وأغمضوا الجفون عن مناظر الآثام، وقيدوا الجوارح عن فضول الكلام، وطووا الفرش

وقاموا في جوف الظلام، وطلبوا الحور الحسان من الحي الذي لا ينام، فلم يزالوا في نهارهم صياما، وفي ليلهم قياما، حتى أتاهم ملك الموت عليه السلام.

بين رجل وعالم:

قال ذو النون بن إبراهيم المصري:

كتب رجل إلى عالم:

ما الذي أكسبك علمك من ربك، وما أفادك في نفسك؟

فكتب إليه العالم:

أثبت العلم الحجة، وقطع عمود الشك والشبهة، وشغلت أيام عمري بطلبه، ولم أدرك منه ما فاتني.

فكتب إليه الرجل:

العلم نور لصاحبه، ودليل على حظه، ووسيلة إلى درجات السعداء.

فكتب إليه العالم:

أبليت إليه في طلبه جدة الشباب، وأدركني حين علمت الضعف عن العمل به، ولو اقتصرت منه على القليل كان لي فيه مرشد إلى السبيل.

من أين لك هذه الفراسة:

رأى ذو النون المصري رجلاً في البرية يمشي حافيًا وهو يقول:

المحب مجروح الفؤاد لا راحة له.

فسلم أبو الفيض عليه.

فقال الرجل:

وعليك السلام يا ذا النون.

فتساءل أبو الفيض:

- عرفننى قبل ه ذا؟

قال الرجل:

- لا.

قال ذو النون المصري:

- فمن أين لك هذه الفراسة؟

قال الرجل:

- ممن يملكها، ليست مني، هو الذي نوَّ ر قلبي بالفراسة حتى عرَّفني إياك من غير معرفة سبقت لي.

يا ذا النون: قلبي عليل، وجسم ي مشغول، وأنا سائح في البر ية أسير فيها منذ عشرين سنة ما أعرف بيتًا، ولا يكنن ي سقف يسترني من الشمس إذا كظت - كظه الأمر: كربه وجهده - ويحفظني من الرياح إذا هبت، فصف لي بعض ما أنا فيه إن كنت وصافا؟

قال ذو النون المصري:

- **القلب إذا كان عليلاً، جالت الأحزان والأسقام فيه، ليس للقلب مع ذا دواء.**

فصرخ الرجل صرخة، ثم قال:

- ما لي والشكوى؟

ثم قال:

- ما صحبت صاحبًا صحبته أصحبك اليوم؟

قال ذو النون:

- قم بنا.

فقاما يسيران بلا زاد، فلما أو غ لا في البرية وطويا ثلاثًا، قال

الرجل لذي النون:

- قد جعت؟

قال أبو الفيض:

- نعم.

قال الرجل:

- فلأقسم عليه حتى يطعمك.

قال أبو الفيضي:

- لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا سألته شيئًا، إن شاء أطعم، وإن شاء ترك.

فتبسم الرجل، وقال:

- امض الآن.

فقد أفيض عليهما من أطايب الأطعمة ولذي ذ الأشربة حتى دخلا مكة سالمين.

ثم فارق الرجل ذا النون.

فكان أبو الفيض كلما ذكره، بكى وتأسف على صاحبه.

دواب البحر:

لما استأنس يوسف بن الحسين بذي النون المصري، سأله:

- أيها الشيخ: ما كان بدو شانك وما أنت فيه؟

قال أبو الفيض:

كنت شابًا صاحب لهو ولعب، ثم إني نبت وتركت ذلك كله وخرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام ومعي بضيعة - تصغير بضاعة - ، فركبت في المركب مع تجار من مصر، وركب معنا شاب صبيح كأنه يشرق وجهه.

فلما توسطنا البحر، فقد صاحب المركب كيسًا فيه مال، فأمر بحبس المركب وفتش من فيه، وأتبعهم.

فلما وصلوا إلى الشاب ليفتش وثب وثبة من المركب حتى جلس على موج من أمواج البحر، وقام له الموج سريرًا على مثال وهو جالس عليه ننظر إليه من المركب، ثم قال:

يا مولاي.

إن هؤلاء اتهموني وإني أقسم يا حبيب قلبي أن تأمر كل دابة في هذا المكان أن **تخرج رؤوسها وفي أفواهها جوهر**.

قال ذو النون:

- فما تم الشاب كلامه حتى رأينا دواب البحر أمام المركب وحواليه قد أخرجت رءوسها وفي فم كل واحدة منها جوهر مضيء يتلألأ ويلمع.

ثم وثب الشاب من الموج إلى البحر وجعل يتبختر على متن الماء ويقول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾} [سورة الفاتحة الآية: ٥].

حتى غاب عن عيني ذي النون المصري.

ميزان القسط:

قال ذو النون المصري:

بينما أنا أسير في تيه بني إسرائيل؛ إذ أنا بجارية سوداء قد استلبها الوله من حب الرحمن، شاخصة بصرها نحو الماء، فقلت:

- السلام عليك يا أختاه.

فقالت:

- وعليك السلام يا ذا النون.

فقلت:

- من أين عرفتيني يا جارية؟!

فقالت:

- يا بطال: إن الله عز وجل خلق الأرواح قبل ا لأجساد بألفي عام، ثم أدارها حول العرش فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، فعرفت روحي روحك في ذاك الجولان.

فقلت:

- إني لأراك حكيمة، علميني شيئًا مما علمك الله عز وجل.

فقالت:

- يا أبا الفيض: ضع على جوارحك ميزان القسط حتى يذوب كل ما كان لغير الله ويبقى القلب مصفى ليس فيه غير الرب عز وجل، فبعد ذلك يقيمك على الباب ويوليك و لاية جديدة ويأمر الخزان لك بالطاعة.

فقلت:

- يا أختاه: زيدني.

فقالت:

- يا أبا الفيض: خذ من نفسك لنفسك، وأطع الله عز وجل إذا خلوت يجيبك إذا دعوت.

أنيس الغرباء:

ببنما كان ذو النون المصري يس ير في البادية ؛ إذ رأى امرأ ة متعبدة، فلما دنا - اقترب - منها، سلمت عليه، فردَّ السلام، فسألته:

- من أين أقبلت؟

قال أبو الفيض:

- من عند حكيم لا يوجد مثله.

فصاحت وقالت:

- ويحك! كيف فارقته وهو أنيس الغرباء؟

فأوجع قلبه كلامها، فبكى، فقالت:

- مم بكاؤك؟

قال ذو النون:

- وقع الدواء على الداء، فأسرع في نجاحه.

قالت:

- فإن كنت صادقًا، فلِمَ بكيت؟

قال أبو الفيض:

- والصادق لا يبكي؟

قالت:

- لا، لأن البكاء راحة القلب، وهذا نقص عند ذوى العقول يا بطال.

قال ذو النون المصري:

- علميني شيئًا ينفعني الله به؟

قالت:

- ويحك ! ما أفادك الحكيم من الفؤاد ما تستغن ي به عن طلب الزوائد؟

قال ذو النون المصري:

- إن رأيت أن تعلميني شيئًا فعلت.

قالت:

- اخدم مولاك شوقًا إلى لقائه، فإن له يومًا يتجلى فيه لأوليائه، وإنه تعالى سقاهم في الدنيا محبته كأسًا لا يظمأون بعدها أبدًا.

ثم أقبلت تبكي، وتقول:

سيدي: إلى كم تدعني في دار لا أجد فيها من يساعدني على بلائي؟

ثم مضت، وهي تقول:

إذا كان داء العبد حب مليكه ⋮ فمن دونه يرجو طبيبًا مداويا؟

ليس بالأبواب تُنال المفاتيح:

سأل أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم ذا النون:

- كم الأبواب إلى الفطنة؟

قال ذو النون المصري:

أربعة أبواب:

أولها: الخوف، ثم الرجاء، ثم المحبة، ثم الشوق.

ولها أربعة مفاتيح:

فالفرض مفتاح باب الخوف.

والنافلة: مفتاح باب الرجاء.

والحب والعبادة والشوق: مفتاح باب المحبة.

وذكر الله الدائم بالقلب واللسان: مفتاح باب الشوق، وهي درجة الولاية، فإذا همم ت بالارتقاء في هذه الدرجة فتناول مفتاح باب الخوف، فإذا فتحته اتصلت إلى باب الفطنة مفتوحًا لا غلق عليه، فإذا دخلته فما أظنك تطيق ما ترى فيه حي نئذٍ يجوز شرفك الأشراف، ويعلو ملكك ملك الموت.

واعلم أي أخي، أنه ليس بالخوف يُنال الفرض، ولكن بالفرض ينال الخوف، ولا بالرجاء ينال النافلة، ولكن بالنافلة ينال الرجاء، كما **أنه ليس بالأبواب تنال المفاتيح، ولكن بالمفاتيح تنال الأبواب.**

واعلم أنه من تكامل فيه الفرض فقد تكامل فيه الخوف، ومن جاء بالنافلة فقد جاء بالرجاء، ومن جاء بمحبة العباد ة فقد وصل إلى الله، **ومن شغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه.**

وهذا سر الملكوت، فاعلمه واحفظه، حتى يكون الله عز وجل هو الذي يناوله من يشاء من عباده.

متى أراك جهارًا؟

قال ذو النون المصري:

وصف لي رجل بشاهرت - موضع - فقصدته، فـأقمت على بابه أربعين يومًا، فلما كان بعد ذلك رأيته، فلما رآني هرب مني، فقلت له:

- سألتك بمعبودك إلا وقفت على وقفة.

فلما وقف، قلت له:

- سألتك بالله بم عرفت الله، وب أي شيء تعرف إليك الله حتى عرفته؟

فقال لي:

- نعم، رأيت لي حبيبًا إذا قربت منه قربني وأدناني، وإذا بعدت صوت بي وناداني، وإذا قمت بالفترة ر غَّبني ومناني، وإذا عملت بالطاعة زادني وأعطاني، وإذا عملت بالمعصية صبر علىَّ وتلطفني.

فهل رأيت حبيبًا مثل هذا؟

انصرف عني ولا تشغلني.

ثم ولى وهو يقول:

حسب المحبين في الدنيا ب آن :: من ربهم سببًا يدني إلى سبب
لهم : نعم وأرواحهم تختال في
قوم جسومهم في الأرض :: الحجب
سارية : إذا تضرعت با لإشفاق
لهفة على خلوة منه تسددن ي :: والرغب

يا رب يا رب أنت الله معتمد ي : متى أراك جهارًا غير محتجب
::
:

أجير السوء:

بينما كان ذو النون المصر ي يسير في جبال أنط اكية، فإذا هو بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة من صوف، فسلم عليها، فردت السلام، ثم قالت:

- ألست ذا النون المصري؟

فقال أبو الفيض:

- عافاك الله، كيف عرفتني؟

قالت:

- فتق الحبيب بيني وبين قلبك فعرف تك باتصال معرفة الحبيب - وعرفتك بمعرفة حب الحبيب -.

ثم قالت:

- أسألك مسألة؟

قال ذو النون:

- سليني.

قالت:

- أي شيء السخاء؟

قال أبو الفيض:

- البذل والعطاء.

قالت:

- هذا السخاء في الدنيا، فما السخاء في الدين؟

قال أبو الفيض:

- المسارعة إلى طاعة المولى.

قالت:

- مُرْ يا بطال ! هذا في الدين قبيح، ولكن المسارعة إلى طاعة المولى أن يطلع قلبك وأنت لا تريد منه شيئًا بشيء.

ويحك يا ذا النون ! إني أريد أن أقسم عليه في طلب شهوة منذ عشرين سنة فلستحي منه **مخافة أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجر**، ولكن أعمل تعظيمًا لهيبته وعز جلاله.

يقول ذو النون المصري:

ثم مرت وتركتني.

حليف الأحزان:

قال ذو النون المصري:

بينما أنا سائر في جبال اللكام - بضم اللام وتشديد الكا ف ويجوز تخفيفها: جبل مشرف على **أنطاكية** وما حولها من الثغور - مررت على واد كثير الأشجار والنبات، فبينما أنا واقف، أتعجب من حسن زهرته ومن خضرة العشب في جنباته ، إذ سمعت صوتًا أهطل مدامعي وهيج بلابل أحزاني - من شدة الْهَمّ -.

فاتبعت الصوت حتى وقفني بباب مغار في سرفح ذلك الوادي، فإذا الصوت والكلام يخرجان من جوف المغار، فاطلعت فيه فإذ ا برجل من أهل التعبّد والاجتهاد، فسمعته يقول:

سبحان من أخرج قلوب المشتاقين في رياض الطاعة بين يديه!

سبحان من أوصل الفهم إلى عقول ذوي البصائر فهي لا تعتمد إلا عليه!

سبحان من أورد حياض المودة نفوس أهل المحبة فهي لا تحن إلا إليه!

ثم أمسك.

فقلت:

- السلام عليك يا حليف الأحزان وقرين الأشجان.

فقال:

وعليك السلام، ما الذي أوصلك إلى من قد أفرده خوف المس ألة عن الأنام، واشتغل بمحاسبة نفسه من التنطع في الكلام؟

قلت:

- أوصلني إليك الرغبة في التصفح والاعتبار.

فقال:

- يا فتى: إن لله عز وجل عبادًا قدح في قلوبهم زند الشغف نار الومق - الحب - فلواحهم لشدة الاشتياق تسرح في الملكوت، وتنظر إلى ما ذخر لها في حجب الجبروت.

قلت: صفهم لي.

- أولئك قوم آووا إلى كنف رحمته.

ثم قال:

- يا سريدي! بهم ألحقني، فوفقني.

قلت:

- ألا توصيني بوصية؟

أحب الله عز وجل شوقًا إلى ل قائه، فإن له يومًا يتجلى فيه لأوليائه.

وأنشأ يقول:

قد كان لي دمع ف آقنيته :: وكان لي جفن ف آدميته
وكان لي جسم ف أبليته : وكان لي قلب ف أضنيته
وكان لي يا سيد ي ناظر :: أرى به الجو ف أعميته

عبدك أضحى سيد ي موبقًا : لو شئت قبل اليوم دا ويته

::
:
::
:

ليس كمثلك شيء:

قال عبد القدوس بن عبد الرحمن الشاشي:

سمعت ذا النون المصري يقول:

إلـهي.

ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خر ير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا قع قعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحد انيتك، دالَّة على أنه ليس كمثلك شيء، وأنك غالب لا تغلب، وعالم لا تجهل، وحليم لا تسفه، وعدل لا تجور، وصادق لا تكذب.

إلـهي.

وسيلتي إليك: نعمك عليَّ، وشفيعي إليك: إحسانك إليَّ.

إلـهي.

أدعوك في الملأ كما تدعى الأرباب، وأدعوك في الخلا كما تدعى الأحباب.

أقول في الملأ:

يا إلـهي.

وأقول في الخلا:

يا حبيبي:

أرغب إليك وأشهد لك بالربوبية مُقِرّ ا بأنك ربي، وإليك مر دِّى، ابتدأتني برحمتك من قبل أن أكون شيئًا مذكورً ا، وخلقتني من تراب

ثم أسكنتني الأصلاب، ونقلتني إلى الأرحام، ولم تخرجني برأفتك في دولة أيمة ثم أنشأت خلقي من مَني يُمنى ثم أسكنتني في ظلمات ثلاث بين دم ولحم ملتاث وكونتني في غير صوره الإناث ثم نشرتني إلى الدنيا تامًا سويًا، وحفظتني في المهد طفلاً صغيرًا صبيًا، ورزقتني من الغذاء لبنًا مريًا، وكفلتني حجور الأمهات وأسكنت قلوبهم رقة لي وشفقة عليَّ، وربيتني أحسن تربية، ودبرتني بأحسن تدبير، وكلأتني - حرستني - من طوارق الجن وسلمتني من شياطين الإنس، وصرتني من زيادة في بدني تشينني، ومن نقص فيه يعيبني.

فتباركت ربي وتعاليت يا رحيم.

فلما استهللت بالكلام أتممت عليَّ سوابغ الأنعام، وأنبتني رائدًا في كل عام.

فتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، حتى إذا ملكتني شأني، وشددت أركاني أكملت لي عقلي، ورفعت حجاب الغفلة عن قلبي، وألهمتني النظر في عجيب صنعك، وبدائع عجائبك، وأوضحت حجتك، ودللتني على نفسك، وعرفتني ما جاءت به رسلك، ورزقتني من أنواع المعاش وصنوف الرياش بمنك العظيم وإحسانك القديم، وجعلتني سويًا ثم لم ترض لي بنعمة واحدة دون أن أتممت على جميع النعم، **وصرفت عني كل بلوى، وأعلمتني الفجور لأجتنبه، والتقوى لأقترفها، وأرشدتني إلى ما يقربني إليك زلفى، فإن دعوتك أجبتني، وإن سألتك أعطيتني، وإن حمدتك شكرتني، وإن شكرتك زدتني.**

إلـهي.

فأي نعم أحصى عددًا وأي عطائك أقوم بشكره؟

أما أسبغت عليَّ من النعماء، أو صرفت عني من الضراء.

إلـهي.

أشهد لك بما شهد لك باطني وظاهري وأركاني.

إلـهي.

إني لا أطيق إحصاء نعمك، فكيف أطيق شكرك عليها؟ وقد قلت وقولك الحق:

{وَإِن تَعُـدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ} [سورة إبراهيم الآية: ٣٤].

أم كيف يستغرق شكر ي نعمك وشكرك من أعظم النعم عندي، وأنت المنعم عليَّ كما قلت سيد ي:{ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ} [سورة النحل الآية: ٥٣].

وقد صدقت قولك.

إلـهي وسيدي:

بلَّغت رسلك بما أنزلت إليهم من وح يك غير أني أقول بجهد ي ومنتهى علمي ومجهود سعيي ومبلغ طاقتي:

الحمد لله على جميع إحسانه حمدًا يعدل حمد الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين.

علامة إقبال الله عز وجل على العبد:

قال ذو النون المصري:

- إن لله لصفوة من خلقه، وإن لله لخيرة من خلقه.

قيل له:

- يا أبا الفيض: فما علامتهم؟

قال أبو الفيض:

- إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة، وأحب سقوط المنزلة.

قيل له:

يا أبا الفيض:

- فما علامة إقبال الله عز وجل على العبد؟

قال ذو النون المصري:

- إذا رأيته ساهيًا راهبًا معرضًا عن ذكر الله فذلك حين يعرض الله عنه.

ثم قال:

- ويحك ! كفى بالمعرض عن الله وهو يعلم أن الله م قبل عليه، وهر معرض عن ذكره.

قيل له:

يا أبا الفيض:

فما علامة الأنس بالله؟

قال أبو الفيض:

إذا رأيته يؤنسك بخلقه فإنه يوحشك من نفسه، وإذا رأيته يوحشك من خلفه فإنه يؤنسك بنفسه.

ثم قال ذو النون المصري:

- الدنيا والخلق عبي دٌ، خلفهم الله للطاعة وضمن لهم أر زاقهم ونهاهم وحذرهم وأنذرهم، فحرصوا على ما نهاهم الله عنه، وطلبوا الأرزاق وقد ضمنها الله لهم، فلا هُم في أرزاقهم استزادوا.

ثم قال:

عجبًا لقلوبكم كيف لا تنصدع؟ ولأجسامكم كيف لا تتضعضع؟ إذا كنتم تسمعون ما أقول لكم وتعقلون؟!

كيف تعرفين الزيادة؟

ذات ضحى، خرج ذو النون المصري سائحًا، فرأى امرأة بأرض

البجة - بفتح الباء وتشديد الجيم، وهي: مدينة بين فارس وأصبهان -.

فناداها:

- يا أمة الله.

فقالت:

- وما للرجال يكلموا النساء؟ لولا ضعف عقلك لرميتك بشيء.

فقال أبو الفيض:

- بالله كيف تعرفين الزيادة؟

قالت:

- بتفقد الأحوال.

ثم أشارت بيدها، وقالت:

- انصرف.

يقول ذو النون المصري:

فما ناطقتها - كلمتها - بعد ذلك.

يئست الدنيا منهم:

قال ذو النون المصري:

بينما أنا سائر في بلاد المغرب ؛ إذ أنا برجل على ع ريش من البلوط - نوع من الأشجار - وعنده عين ماء تجري، فلقمت عليه يومًا وليلة أريد كلامه، فلشرف علىَّ بوجهه فسمعته يقول:

شهد قلبي لله بالنوازل، وكيف لا يشهد قلبي بذلك؟ هيهات هيهات! لقد خاب لديك المقصرون.

سيدي: ما أحلى ذكرك، أليس قصدك م ؤملون فنالوا ما أملوا، وَجُدْتَ لهم بالزيادة، على ما طلبوا؟!

فقلت له:

- يا حبيبي: إني مقيم عليك منذ يوم وليلة أريد أن أسمع كلامك.

فقال لي:

- قد رأيتك يا بطَّالُ حين أقبلت، ولكن ما ذهب روعك من قلبي إلى الآن.

فقلت:

- ولم ذلك؟ وما الذي أفزعك مني؟

- بطالتك يوم عملت، وتركك الزاد ليوم معادك، ومقامك على المظنون.

فقلت له:

- يا حبيبي: ما هاهنا فتية نستأنس بهم؟

قال:

- بلى، هاهنا فتية متفرقون في رؤوس الجبال.

قلت:

- فما طعامهم في هذا المكان؟

- أكلهم الفلق - بكسر الفاء وفتح اللام: فلقة القطعة، وما فلق أو شق الشيء - من خبز البلوط، ولباسهم الخرق من الثياب، قد يئسوا من الدنيا ويئست الدنيا منهم، أعطوا المجهود من أنفسهم، فما دبرت المفاصل من الركوع وقرحت الجباه من السجود، وتغيرت الألوان من السفر، ضجوا إلى الله بالاستغاثة.

علامات الخوف من الله:

وصف لأبي الفيض، رجل باليمن قد برز - ظهر - على المخالفين وسما - علا - على المجتهدين، وذكر له باللب والحكمة، ووصف له بالتواضع والرحمة.

فخرج ذو النون حاجًا، فلما قضى نسكه مضى إلى اليمن ليسمع كلام ذلك الرجل وينتفع بموعظته هو وناس كانوا معه يطلبون منه مثل ما يطلب أبو الفيض، وكان معهم شاب عليه سيما الصالحين ومنظر الخائفين، كان مصفار الوجه من غير مرض، أعمش العينين من غير عمش، ناحل الجسم من غير سقم - مرض -، يحب الخلوة وأنس بالوحدة، تراه أبدًا كأنه قريب عهد بالصهيبة، أو قد فدحته نائبة، فخرج إليهم وجلس معهم وبدأ بالسلام على الشيخ وصافحه، ف أبدى الشيخ للشاب بالبشر والترحيب، فسلم عليهم جميعًا ثم بدأ الشاب بالكلام، فقال:

- إن الله تعالى بمنِّهِ وفضله قد جعلك طبيبًا لسقام القلوب، ومعالجة لأوجاع الذنوب، وبي جرح قد فعل، وداء قد استكمل، فإن رأيت أن تتلطف ببعض مراحمك وتعالجني برفقك.

فقال له الشيخ:

- سل ما بدا لك يا فتى.

فقال له الشاب:

- يرحمك الله، ما علامة الخوف من الله؟

قال الشيخ:

- إن يؤمنه خوفه من كل خوف غير خوفه.

فقال الشاب:

- يرحمك الله، متى يتبين العبد خوفه من ربه؟

قال الشيخ:

- إذا أنزل نفسه من الله بمنزلة السقيم، فهو يحتس من لك الطعام مخافة السقام، ويصبر على مضض كل دواء مخافة طول الضنا.

فصاح الشاب صيحة، وقال:

- عافيت فأبلغت، وعالجت فشفيت.

ثم بقى باهتًا سراعة لا يحير جوابًا حتى ظنوا أن روحه قد خرجت من بدنه...

نم قال:

- يرحمك الله، ما علامة المحب لله؟

قال الشيخ:

- حبيبـي: إن درجة الحب رفيعة.

قال الشاب:

- فلنا أحب أن تصفها لي.

قال الشيخ:

إن المحبين ﷺ، شق لهم من قلوبهم فأبصروا بنور القلوب إلى الله عز وجل، فصارت أبدانهم دنياوية وأرواحهم حجبية وعقولهم سماوية تسرح بين صفوف الملائكة كالعيان وتشاهد ملك الأمور باليقين، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم بحبهم له لا طمعًا في جنة ولا خوفًا من نار، فشوهق الفتى شهقة وصاح صيحة كانت فيها نفسه.

فانكب عليه الشيخ يلثمه وهو يقول:

هذا مصرع الخائفين، هده درجة المجتهدين، هذا أمان المتقين.

القلوب والأسرار:

كان ذو النون المصري يطوف حول الكعبة، فسمع صوتًا حزينًا، وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة، وهي تقول:

::

أنت ت درى يا حبيبـي : من حبيبـي؟ أنت تدري

ونحول الجسم والدمع :: يبوحان بسري

يا عزيز ي قد كتمت ا لحـ : ـب حتى ضاق صدر ي

::

:

يقول أبو الفيض:

- فشجاني ما سعت حتى انتحبت وبكيت.

ثم قالت:

إلـهي وسيدي ومولاي.

بحبك لي إلا ما غفرت لي.

فعاظم ذلك أبو الفيض، فقال:

يا جارية! أما يكفيك أن تقولي: بحبي لك حتى تقولي بحبك لي؟

فقالت الجارية:

إليك عني يا ذا النون، أما علمت أن الله عز وجل قومًا يحبهم قبل أن يحبوه؟

أما سمعت الله عز وجل يقول: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [سورة المائدة الآية: ٥٤]، فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له؟!

فقال أبو الفيض:

من أين علمت أني ذو النون؟

قالت الجارية:

يا بطَّالُ! جالت القلوب في ميدان الأسرار فعرفتك.

ثم قالت:

انظر خلفك.

فلدار ذو النون وجهه.

يقول أبو الفيض:

لم أره ا، فلا أدري السماء اقتلعتها أم الأرض ابتلعتها؟

من عقلاء المجانين:

وصف لذ ي النون المصري رجل من أهل المعرفة في جبل اللكام، فـقصده فلقيه جماعة من المتعبدين فسال أبو الفيض عن الرجل، فقالوا:

- يا ذا النون! تسأل عن المجانين؟

فقال ذو النون:

- وما الذي رأيتم من جنونه؟

قالوا:

- نراه في أكثر أوقاته هائمًا ساهيًا يُكلَّم فلا يجيب، ويتكلَّم فلا نفقه ما يقول، ويَنوح أكثر أوقاته على نفسه ويبكي.

فقال أبو الفيض في نفسه:

- ما أحسن أوصاف هذا المجنون!

ثم قال ذو النون:

- دلوني عليه.

فقالوا:

- إنه يأوي في الوادي الفلاني.

فانطلق ذو النون إلى الوادي، فأشرف على واد وعر، فجعل ينظر يمينًا وشمالاً، فإذا هو بصوت محزون شج من وجد قلب، وهو يقول:

::

يا ذا الذي أ نس الفؤاد بذكره : أنت الذي ما لي سواه أريد
تفنى الليالي والزمان بأسره :: وهواك غض في الفؤاد جديد

:

يقول ذو النون:

فاتبعت الصوت، فإذا أنا بفتى حَسَنُ الوجه حَسنُ الصوت وهو شبيه بالواله الحيران، فسلمت عليه، فرد السلام، وبقى شاخصًا يقول:

أعميت ع ين ي عن الدنيا :: فلَهْت والروح شيء غير

وزينتها : مفترق
إذا ذكرتك وافي م قلتي أرق :: من أول الليل حتى مطلع الفلق
وما تطابقت الأجفان عن سنة : إلا رأيتك بين الجفن والحدق
::
:

ثم قال:

- يا ذا النون! ما لك وطلب المجانين

قال أبو الفيض:

- أو مجنونٌ أنت؟

قال:

- قد سُمِّيتَ به.

فقال ذو النون:

- مسألة؟

قال الرجل:

- سل.

قال أبو الفيض:

- أخبرني ما الذي حبب إليك الانفراد وقطعك عن المؤانسين وهيمك في الأودية؟

قال الرجل:

- حبي له هيَّمني، وشوقي إليه هيَّجني، ووجدي به أفردني.

ثم قال:

يا ليت عمري يا فتى إلى متى :: تتركني مقلقلاً في محبتي؟
:

فقال أبو الفيض:

- أخبرني أين محل الحب منك؟ وأين مسكن الشوق فيك؟

فقال الرجل:

- مسكن الحب: سواد الفؤاد.

فتساءل أبو الفيض:

- فما الذي تجد في خلوتك؟

قال الرجل:

- الحقّ سبحانه!

قال ذو النون المصري:

- كيف تجده؟

قال الرجل:

- بحيث لا حيث.

ثم قال:

- يا ذا النون! أعجبك كلام المجانين؟

قال أبو الفيض:

- إي والله أشجاني.

ثم قال ذو النون المصري:

- ما صدق وجدانك للحق تعالى؟

فصرخ صرخة ارتج لها الجبل، ثم قال:

- يا ذا النون! هكذا موت الصادقين.

ثم سقط إلى الأرض ميتًا.

يقول ذو النون المصري:

فتحيرت في أمره، لا أرى ما أصنع به.

وإذا به قد غاب عني فلا أرى أين ذهب؟

إنهم أقوياء في توكّلهم:

وصف لأبي الفيض رجل في جبل المقطم - جبل يشرف على منطقة مدينة القاهرة في مصر - فقصده ذو النون، فرأى رجلاً متعبدًا فمكث معه أربعين يومًا لا يكلمه، ثم استخار الله يومًا في كلامه، وسأل الله أن يوفقه له.

فقال ذو النون المصري:

- أيها الشيخ! فيمَ النجاة؟

فقال الشيخ:

- في التقوى والمراقبة.

فقال أبو الفيض:

- زدني.

قال الشيخ:

- فر من الخلق ولا تستأنس بهم.

قال أبو الفيض:

- زدني.

فقال الشيخ:

إن لله عبادًا نظروا إلى باطن الدنيا لما نظر الخلق إلى ظاهرها فلماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، نهم قوم صافوه بالعقول ودققوا له الفطن فسقاهم كأسًا من محبته فهم في عطشهم أرواء، وفي ريهم عطاش.

فقال ذو النون المصري:

- زدني.

قال الشيخ:

- إنهم أقوياء في توكّلهم.

مناجاة:

يقول أبو عثمان بن سعيد بن عثمان:

سمعت ذا النون يقول:

اللهم متّع أبصارنا بالجولان في جلالك، وسهرنا عما نامت عيون الغافلين، واجعل قلوبنا مع قودة بسلاسل النور، وعلقها بأطناب التفكر، ونزه أبصارنا عن سرر مواقف المتحيرين، وأطلقنا من الأسر لنجول في خدمتك مع الجوالين.

اللهم اجعلنا من الذين استعملوا ذكر قطع اللذات، وخالفوا متاع الغرة بواضحات للمعرفة.

اللهم اجعلنا من الذين لخدمتك في أقطار الأرض لهم طلابًا، ولخصائص أصفيائك أصحابا، وللمريدين المعتكفين ببابك أحبابًا.

اللهم اجعلنا من الذين غسلوا أوعية الجهل بصفو ماء الحياة في مسالك النعيم حتى جالت في مجالس الذكر مع رطوبة ألسنة الذاكرين.

اللهم اجعلنا من الذين رتعوا في زهرة بيع الفهم حتى تسامت أسنية الفكرة فوق سمو السمو حتى تسامى بهم نحو مسام العلويين براحات القلوب، ومستنبطات عيوب الغيوب بطول استغفار الوجوه في محاريب قدس رهبانية الخاشعين حتى لاذت أبصار القلوب بجواهر السماء وعبرت أفنية النواحين من مصاف الكروبيين ومجالسة الروحانيين بين يديك فلحرقت نار الخشية بصائر مناقب الشهوات من قلوبهم وسكنت خوافي ضلوع مضاربق الغفلات من صدورهم، فأنبت ذكر الصلوات رقاد قلوبهم.

يا رب:

كيف لا أبتهج بك سرورًا وقد كنت أكدح بابك حتى جعلتني من

أهل التوحيد؟

كرامات الله عز وجل لأوليائه:

كان أصحاب ذي النون ذات يوم عنده، وذكر بعضهم كرامات الله عز وجل لأوليائه، فقال بعض من حضره:

أنت رأيت منهم أحدًا يا أبا الفيض؟

قال ذو النون المصري:

كان عندي فتى من أهل خراسان أعجمي يبقى عندي في المسجد سبعة أيام لا يطعم الطعام وكنت أعرض عليه الطعام في أبى، فبينما نحن جلوس ذات يوم دخل سائل طلب شيئًا

فقال له الخراساني:

- لو قصدت الله عز وجل دون خلقه، أغناك.

فقال السائل:

- ما لي هذا المكان.

فقال له الخراساني:

- أي شيء تريد؟

فقال السائل:

- ما سدّ فاقتي وستر عورتي.

فقام الخراساني إلى المحراب وصلى ركعتين.

- ثم أتاه بثوب جديد، وطبق فيه فاكهة، وأعطاه السائل.

فقال ذو النون للخراساني:

- يا عبد الله! لك هذا الجاه عند الله عز وجل، وأنت منذ سبعة أيام لم تطعم شيئًا؟!

فجثا على ركبتيه، وقال:

- يا أبا الفيض ! كيف نبسط ا لألسن بالمسألة والقلوب ممتلئة بأنوار الرضا عنه؟

قال أبو الفيض:

- فالراضون لا يسألون شيئًا.

فقال الخراساني:

منهم من يسأل من باب الإذلال، ومنهم من يملؤه غنى به، ومنهم من يستخرج المسألة منه عطفه على غيره.

ثم أُقيمت الصلاة فصلى العشاء الآخرة، وأخذ ركوته وخرج إلى المسجد كأنه يريد الطهارة.

يقول ذو النون المصري:

فلم أره بعد ذلك.

اطلب دواءك ممن ابتلاك:

دخل ذو النون المصري ذات يوم إلى سواد نيل مصر، فجاءه الليل، فقام بين زروعها، فإذا هو بامرأة سوداء قد أقبلت إلى سنبلة ففركتها، ثم امتنعت عليها فتركتها وبكت، وهي تقول:

يا من بذره حبا يابسًا في أرضه ولم يك شيئًا

أنت الذي صيرته حشيشًا ثم أنبته عودًا قائمًا.

بتكوينك وجعلت فيه حبًا متراكبًا، ودوَّرته فكوّنته وأنت على كل شيء قدير.

وقالت:

عجبت لمن هذه مشيئته كيف لا يُطاع؟

وعجبت لمن هذا صنعه كيف يُشتكى؟

فدنا ذو النون المصري منها، وقال لها:

- من يشكو أمل المؤملين؟

فقالت له:

- أنت يا ذا النون.

إذا اعتللت فلا تجعل علتك إلى مخلوق مثلك.

واطلب دواءك ممن ابتلاك.

وعليك السلام.

لا حاجة في مناظرة الباطلين.

ثم أنشأت تقول:

وكيف تنام العين و هي قريرة ... ولم تدر في أي المحلين تنزل

الزنجي:

قال ذو النون المصري:

صحبت زنجيًا في التيه - تيه بني إسرائيل - وكان مفلفل الشعر، إذا ذكر الله ابيضَّ، فورد على أمر عظيم فقلت:

- لِمَ يا هذا! إنك إذا ذكرت الله تحول لونك وارقلبت عيناك؟

فجعل الزنجي يخطر في التيه، ويقول:

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكر ... ولكن نسيم القرب يبدو فيظهر
فلحيى به عنى وأحيى به له ... إذا الحق عنه مخبر ومعبر

قال ذو النون:

فما طرق سمعي مثل حكمة ذلك الزنجي.

فعلمت أن لله تعالى عبادًا تعلى قلوبهم بالأذكار كما تعلى الأطيار في الأوكار، لو فتشت منهم القلوب لما وجدت فيها غير حب المحبوب.

ثم بكى أبو الفيض، وأنشأ يقول:

وأذكر أصنافًا من الذكر ... وداد وشوق يبعثان على الذكر
حشوها ... يحل محل الروح في طرفها
فذكر أليف الحب ممتزج بها ... يسري
وذكر يعز النفس منها لأنه ... لها متلف من حيث يدري ولا تدري
وذكر علا مني المفاوز والذرى ... يجل عن الأوصاف بالوهم والفكر

ذو النون المصري وأمير المؤمنين جعفر المتوكل:

لما حُمل أبو الفيض إلى جعفر المتوكل في بعض الدور وأوصى به زرافة صاحبه وقال أمير المؤمنين:

- أنا إذا رجعت غدًا من ركوبي، فلخرج إلى هذا الرجل.

فقال زرافة لذي النون:

- إن أمير المؤمنين قد أوصاني بك.

فلما رجع أمير المؤمنين من الغد من الركوب، قال زرافة لأبي الفيض:

- انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام.

فلما أخرج زرافة ذا النون إلى جعفر المتوكل، قال له:

سلم على أمير المؤمنين.

فقال أبو الفيض:

- ليس هكذا جاءنا الخبر، إنَّما جاءنا في الخبر أن الراكب يسلم على الراجل - الذي يمشي على قدميه -.

فتبسم أمير المؤمنين وبدأ ذا النون بالسلام، ونزل إليه جعفر المتوكل، وقال له:

- أنت زاهد أهل مصر؟

قال ذو النون:

- كذا يقولون.

فقال له زرافة:

- فإن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهَّاد.

فلطرق أبو الفيض مليًا، ثم قال:

يا أمير المؤمنين ! إن لله عباد عبدوه بخالص من السر فشرفهم بخالص من شكره، فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فرغا حتى إذا صارت إليه ملاها من سر ما أصروا إليه، أبدانهم دنياوية، وقلوبهم سماوية، قد احتوت قلوبهم من المعرفة كأنهم يعبدونه مع الملائكة تلك الفرج وأطباق السماوات، لم يخبتوا في ربيع الباطل، ولم يرتعوا في مصيف الآثام، ونزهوا الله أن يراهم يثبون على حبائل مكره، هيبة منهم له وإجلالاً أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشيء لا يدوم، وبلذَّةٍ من العيش مزهودة، فأولئك الذين أجلسهم على كراسي أطباق أهل المعرفة بالأدواء والنظر في منابت الدواء، فجعل تلامذتهم أهل الورع والبصر.

فقال لهم:

إن أتاكم عليل من فقد فداوه، أو مريض من تذكري فأدنوه، أو ناس لنعمتي فذكروه، أو مبارز لي بالمعاصي فنابذوه أو محب لي فواصلوه، يا أولياءي فلكم عاتبت ولكم خاطبت ومنكم الوفاء طلبت، لا أحب استخدام الجبارين، ولا تولى المتكبرين، ولا مصافاة المترفين.

يا أولياءي وأحباءي: جزاءي لكم أفضل الجزاء، وإعطاءي لكم أفضل العطاء، وبذلي لكم أفضل البذل، وفضلى عليكم أوفر الفضل، ومعاملتي لكم أوفى المعاملة، ومطالبتي لكم أشد مطالبة، وأنا مقدس القلوب، وأنا علام الغيوب، وأنا عالم بمجال الفكر، ووسواس

الصدور، من أرادكم قصمته، ومن عاداكم أهلكته.

تفريج كرب القلوب:

لما انصرف ذو النون المصري من عند أمير المتوكل على الله، دخل على زرافة صاحب المتوكل، فقال له:

- اكتب لي دعوة.

فكتب أبو الفيض دعوه لزرافة صاحب المتوكل، فقدم إلى ذي النون جام لوزينج وقال له:

- كل من هذا فإنه يوزن الدماغ وينفع العقل.

فقال أبو الفيض:

- ينفعه غير هذا.

قال زرافة:

- وما ينفعه؟

قال أبو الفيض:

- ابتِّاع أمر الله والانتهاء عن نهيه، أما علمت أن رسول الله ﷺ قال:

إنَّما العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه).

فقال زرافة:

- أكرمني بأكله.

فقال ذو النون:

- أريني غير ه ذا.

قال زرافة:

- وأي شيء تريد؟

فقال أبو الفيض:

- هدا لمن لا يعرف الحلو ولا يعرف أكله، وإن أهل معرفة الله يتحذرون خلاف هذا اللوزينج.

قال زرافة:

- هذا من مطبخ أمير المؤمنين المتوكل على الله.

فقال ذو النون:

- أنا أصف لك لوزينج للمتوكل على الله.

قال صاحب المتوكل:

- هات لله أبوك.

قال ذو النون المصري:

- خد لباب مكنون محض طعام المعرفة، واعجنه بماء الاجتهاد، وانصب، أثفية - الأثفية : ما يوضع عليه القدر والجمع ا لأثافي - الإنكار، وطابق الوداد، ثم اخبز خبز لوزينج العباد، بحر نيران نفس الزهاد، وأوقده بحطب الأسى حتى ترمي نيران وقودها بشرر الضنا، ثم احش ذلك بوقيد الرضا، ولوز الشجا من ضوضان بمهراس الوفا مطيبًا بطينة رقة عشق الهوى، ثم اطوه على ا لأكياس للأيام بالعرا، وقطعه بسكاكين السهر في جو ف الدجا ورفض لذيذ الكرا - النوم - ونضده على جامات الفلق والسهر، وانثر عليه سكرًا بعسل من زفرات الحرق، ثم كله بأنامل التفويض في ولائم المناجاة بوجدان خواطر القلوب، فعند ذلك تفريج كرب القلوب، ومحل سرور المحب بالملك المحبوب.

يقول زرافة صاحب أمير المؤمنين جعفر المتوكل بالله:

ثم ودعني.

من دعاء ذي النون:

كان أبو الفيض يدعو ويقول:

* اللهم اجعلنا من الذين جازوا ديار الظالمين، واستوحشوا من مؤانسة الجاهلين، وشابوا بشرة العمل بنور الإخلاص، واستقوا من عين الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا بريح اليقين، ولججوا في بحر النجاة، ورسوا بشط الإخلاص.

* اللهم اجعلنا من الذين سرحت أرواحهم في العلا، وحطت همم قلوبهم في عاريات التقى حتى أناخوا في رياض النعيم، وجنوا من رياض ثمار التسليم، وخاضوا لجة السرور، وشربوا بكأس العيش، واستظلوا تحت العرش في الكرامة.

*** اللهم اجعلنا من الذين فتحوا باب الصبر، وردموا خنادق الجزع، وجازوا شديد العقاب، وعبروا جسر الهوى، فإنه تعالى يقول:**

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾}
[سورة النازعات الآيتين: ٤٠ - ٤١].

* اللهم اجعلنا من الذين أشارت إليهم أعلام الهداية، ووضحت لهم طريق النجاة، وسلكوا سبيل إخلاص اليقين.

* اللهم إليك تقصد رغبتي، وإياك أسأل حاجتي، ومنك أرجو نجاح طلبتي، وبيدك مفاتيح مسألتي، لا أسأل الخير إلا منك، ولا أرجوه من غيرك، ولا أيأس من روحك بعد معرفتي بفضلك.

يا من جمع كل شيء بحكمته، ويا من نفذ في كل شيء حكمه، يا من الكريم اسمه لا أحد لي غيرك فأسأله، ولا أثق بسواك فآمله، ولا أجعل لغيرك مشيئة من دونك أعتصم بها، وأتوكل عليه، فمن أسأل إن جهلتك؟ وبمن أثق إذ عرفتك؟

* اللهم إن شغلتني بك وإن ألهتني - شغلتني - الغفلات عنك وأبعدتني العثرات منك بالاغترار ، يا مقيل العثرات ! إن لم تقلني بعصمة من العثرات، فإني لا أحول بعزيمة من نفسي، ولا أروم على

خليفة بمكان من أمري.

أنا نعمة منك، وأنا أقدر سر قدرك، أجرى في نعمتك، وأسرح في قدرك، أزداد على سابقة علمك، ولا أنتقص من عزيمة أمرك.

فلسالك يا م نتهى السؤالات، وأرغب إليك يا موضع الحاجات، سواك من قد كذب كل رجاء إلا منك وركبة من رغب عن كل ثقة إلا عنك، أن تهب لي إيمانًا أقدم به عليك، وأوصل به عظم الوسيلة إليك، وأن تهب لي يقينًا لا توهنه بشبهة إفك - لكذب -، ولا تهنه خطرة شك، ترحب - توسع - به صدر ي، وتيسر به أمر ي، ويأوي إلى محبتك قلبي، حتى لا ألهو عن شكرك، ولا أنعم إلا بذكرك.

يا من لا تمل حلاوة ذكره ألسن الخائفين، ولا تكل من الر غبات إليه مدامع الخاشعين.

أنت م نتهى سرائر قلبي في خفايا الكتم، وأنت موضع رجائي بين إسراف الظلم.

من ذا الذي ذاق حلاوة مناجاتك فلها - سلا وترك - بمرضاة بشر عن طاعتك ومرضاتك؟

رب أفنيت عمري في شدة السهو عنك، وأبليت شبابي في سكرة التباعد منك، ثم لم أستبطئ لك كلاءة ومنعة في أيام اغترار ي بك وركوني إلى سبيل سخطك، عن جهل يا رب قربتني الغرة إلى غضبك.

أنا عبدك ابن عبدك قائم بين يديك، متو سل بكرمك إليك، فلا يزلني عن مقام أقمتني فيه غيرك، ولا ينفلني من موقف السلامة من نعمك إلا أنت، أتنصل إليك بما كنت أواجهك من قلة استحيا ئي من نظرك، وأطلب العفو منك يا رب؛ إذ العفو نعمة لك ومك.

يا من يُ عْصى وَيُتاب إليه فيرض ى كأنه لم يُعص، بكرم لا

يوصف، وتحنن لا ينعت.

يا حنان بشفقته، يا متجاورًا بعظمته، لم يكن لي حول فأنتقل عن معصيتك إلا في وقت أيقظتني فيه لمحبتك، وكما أردت أن كون كنت، وكما رضيت أن أقول قلت، خضعت لك، وخشعت لك.

إلهي.

لتعزني بإدخالي في طاعتك، ولتنظر إليَّ نظر من ناديته فأجابك، واستعملته بمعونتك فأطاعك.

يا قريب لا تبعد عن المعتنين.

ويا ودود لا تعجل على المذنبين.

اغفر لي وارحمني يا أرحم الراحمين.

*** اللهم اجعلنا من الذين تفكروا فاعتبروا، ونظروا فأبصروا،** وسمعوا فتعلقت قلوبهم بالمنازعة إلى طلب الآخرة حتى أناخت وانكسرت عن النظر إلى الدنيا وما فيها ففتقوا بنور الحكم ما رتقه ظلم الغفلات، وفتحوا أبواب مغاليق العمى بأنوار مفاتيح الضياء، وعمروا مجالس الذاكرين بحسن مواظبة استيدام الثناء.

* اللهم اجعلنا من الذين تراسلت عليهم ستور عصمة الأولياء، وحصنت قلوبهم بطهارة الصفاء، وزينتها بالفهم والحياء، وطيرت همومهم في ملكوت سماواتك حجابًا حتى تنتهي إليك فرددنها بظرائف الفوائد.

* اللهم اجعلنا من الذين سهل عليهم طريق الطاعة، وتمكنوا في أزمة التقوى، ومنحوا بالتوفيق منازل الأبرار، فزينوا وقربوا وكرموا بخدمتك.

* الحمد لله يا ذا المنِّ والطَّوْل والآلاء والسعة.

إليك توجهنا، وبفنائك أنخنا، ولمعروفك تعرضنا، وبقربك نزلنا.

يا حبيب التائبين، ويا سرور العابدين، ويا أن يس المنفرين، و يا حر ز اللاجئين، ويا ظهير المنقطعين، ويا من حبب إليه قلوب العارفين، وبه أنست أفئد ة الصديقين، وعليه عطفت ـ مالت ـ رهبة الخائفين، يا من أذاق قلوب العابدين لذيذ الحمد، وحلاوة الان قطاع إليه.

يا من يقبل من تاب و يعفو عمن أناب، ويدعو المولين كرمًا، ويرفع المقبلين إليه تفضلاً.

يا من يثني على الخاطئين، ويحلم عن الجاهلين.

ويا من حل عقدة الرغبة من قلوب أوليائه ومحا شهوة الدنيا عن فكر قلوب خاصته وأهل محبته، ومنحهم منازل القرب والولاية.

ويا من لا يضيع مطيعًا، ولا ينسى صبيًا.

يا من منح بالنوال.

ويا من جاد بالاتصال.

يا ذا الذي استدرك بالتوبة ذنوبنًا، وكشف بالرحمة غمومنا، وصفح عن جرمنا بعد جهلنا، وأحسن إلينا بعد إساءتنا.

يا آنيس وحشتنا، ويا طبيب س قمنا، يا غ ياث من أس قط بيده، وتمكن حبل المعاص ي وأسفر خدر الحيا عن وجهه، هب خدودنا للتراب بين يديك.

يا خير من قدر، وأرأف من رحم وعفا.

من أقوال ذي النون المصري:

قال ذو النون:

ما أخاف عليكم منع الإجابة وإنما أخاف عليكم منع الدعاء.

وقال ذو النون:

ليس بعاقل من لم ينصف من نفسه وطلب الإنصاف من الناس.

وقال:

كل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش، وكل محب ذليل، وكل خائف هارب، وكل راج طالب.

وسئل ذو النون: ما سبب الذنب؟

قال: اعقل ويحك، ما تقول، فإنها من مسائل الصديقين، سبب الذنب النظرة، ومن النظرة الخطرة، فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله ذهبت، وإن لم تتداركها امتزجت بالوساوس فتتولد منها الشهوة، وكل ذلك بعد ذلك باطن لم يظهر على الجوارح، فإن تداركت الشهوة وإلا تولد منها الطلب، فإن تداركت الطلب وإلا تولد منه الفعل.

وقال:

من عرف قدر الدنيا كلها لم يكن للدنيا عنده قدر.

وقال:

لم يزل المنافقون يسخرون بالفقراء في كل عصر.

وقال سعيد بن الحكم:

سئل ذو النون: من أدوم الناس عناءًا؟

قال أسوؤهم خلقًا.

قيل: وما علامة سوء الخلق؟

قال: كثرة الخلاف.

قال: وسمعت ذا النون يقول:

سئل جعفر بن محمد عن **السفلة** فقال:

من لا يبالي ما قال ولا من قيل فيه.

وقال يوسف بن الحسين: سمعت ذا النون يقول:

من تزين بعمله كانت حسناته سيئات.

قال: وسمعت ذا النون يقول:

أدنى منازل الأنس أن يلقى في النار فلا يغيب همه عن مأموله.

وقال نصر بن أبي نصر: قال ذو النون:

الخوف رقيب العمل، والرجاء شفيع المحن.

وسئل ذو النون: ما أخفى الحجاب وأشده؟

قال: رؤية النفس وتدبيرها.

وقال إسحاق بن إبراهيم الخواص: سمعت ذا النون يقول:

من أدرك طريق الآخرة فليكثر مساءلة الحكماء ومشاورتهم، وليكن أول شيء يسأل عنه العقل، لأن جميع الأشياء لا تدرك إلا بالعقل، ومتى أردت الخدمة لله فاعقل لم تخدم؟ ثم اخدم.

وقال ذو النون:

حرم الله الزيادة في الذوق والإلهام في القلب والفراسة في الخلق على ثلاثة نفر:

على بخيل بدنياه، سخي بدينه، سيئ الخلق مع الله.

فقال له رجل: صف لنا سيئ الخلق مع الله.

فقال: يقضي الله تعالى قضاء، ويمضي قدرًا، وينفذ علمًا، ويختار لعبد أمرًا، فترى صاحب سوء الخلق مع الله مضطرب القلب في ذلك كله غير راض به، وإنما شكواه من الله إلى خلقه، فما ظنك؟

وقال ذو النون:

مفتاح العبادة الفكرة، وعلامة الهوى متابعة الشهوات، وعلامة التوكل انقطاع المطامع.

وقيل لذي النون: متى يأنس العبد بربه؟

قال: إذا خافه أنس به، وإنما علمتم أنه من واصل الذنوب نحى على باب المحبوب.

وقال:

من عمى عن عيوب نفسه انكشفت له عيوب الناس فمقتته القلوب.

وقال:

ما أعز الله عبدًا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه، وما أذل الله عبدًا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه.

وقال:

ليس بعاقل من تعلم العلم فعرف به، ثم آثر بعد ذلك هواه على عمله، وليس بعاقل من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره، وليس بعاقل من نسى الله في طاعته، وذكر الله تعالى في مواضع الحاجة إليه.

وقال:

من وثق بالمقادير استراح، ومن تقرب قرب، ومن صفى صفي له.

وعن يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون يقول:

أنت ملك مقتدر، وأنا عبد مفتقر، أسألك العفو تذللاً، فأعطينه تفضلا.

وقال ذو النون:

كيف أفرح بعملي وذنوبي مزدحمة؟ أم كيف أفرح بأملي وعاقبتي مبهمة؟

وقال:

قد غفلت القلوب عنه وهو منشيها، وأدبرت النفوس عنه وهو يناديها، فسبحانه، ما أمهله للأنام من تواتر الآلاء والأنعام.

وقال:

طوبى لعبد أنصف ربه، أقر له بالآفات في طاعته، وبالجهل في معصيته، فإن أخذه بالذنوب رأى عدله، وإن غفر رأى فضله.

وعن محمد بن أحمد بن سلمة النيسابوري قال: سمعت ذا النون يقول:

يا خراساني، احذر أن تنقطع عنه فتكون مخدوعًا.

قلت: وكيف ذلك؟

قال: لأن المخدوع من ينظر إلى عطاياه فينقطع عن النظر إليه بالنظر إلى عطاياه، ثم قال:

تعلق الناس بالأسباب وتعلق الصديقون بولي الأسباب..

ثم قال:

علامة تعلق قلوبهم بالعطايا طلبهم منه العطايا، ومن علامة تعلق قلب الصديق بولي العطايا انصباب العطايا عليه وشغله عنها به.

ثم قال:

اعقل، فإن هذا من صفوة التوحيد.

وقال:

من أعلام الإيمان: اغتنام القلب بمصائب المسلمين، وإرشادهم إلى ما فيه مصالحهم وإن كرهوه.

وكان يقول:

إن الله تعالى أنطق اللسان بالبيان، وافتتحه بالكلام، وجعل القلوب أوعية للعلم، ولولا ذلك كان الإنسان بمنزلة البهيمة، يومئ بالرأس

ويشير باليد.

وقال:

من راقب العواقب سلم.

وقال:

من علامة سخط الله تعالى عبد العبد خوفه من الفقر.

وقال:

صدور الأحرار قبور الأسرار.

وقيل:

إنما أحب الناس الدنيا لأنه تعالى جعلها خزانة أرزاقهم فمدوا أعينهم إليها.

وسئل ذو النون: ما الذي أنصب العباد وأضناهم.

قال: ذكر المقام، وقلة الزاد، وخوف الحساب.

وقال:

المتصنع يبدي غير الذي هو به، والصادق لا يبالي على أي جنب وقع.

وقال:

ما هلك من هلك إلا بطلب أمر قد أخفاه وإنكار أمر قد أبداه.

وقال:

الأنس بالله نور ساطع، والأنس بالناس غم واقع.

فقيل له: ما الأنس بالله؟

قال: العلم والقرآن.

وكان يقول:

إن الله تعالى لم يمنع أعداءه الجنة بخلا، وإنما صان أولياءه الذين

أطاعوه أن يجمع بينهم وبين أعدائه الذين عصوه.

وكان أبو الفيض يقول:

* سقم الجسد في الأوجاع، وسقم القلوب في الذنوب، فكلما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه - مرضه -، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب.

* من لا يعرف قدر النعم سلبها مِنْ لا يعلم.

* وسال رجل ذا النون المصري:

- مَنْ أُجَالِس؟

قال أبو الفيض:

عليك بصحبة من تذكرك الله عز وجل رؤيته، وتقع هيبته على باطنك، ويزيد في علمك منطقه، ويزهدك في الدنيا عمله، ولا تعصى الله ما دامت في قربه، يعظك بلسان فعله، ولا يعظك بلسان قوله.

* إلـهي: إن كان صغر في جنب طاعتك عملي، فقد كبر في جنب رجائك أملي.

* وسأل رجل أبا الفيض:

متى تصح عزلة الخلق؟

قال ذو النون المصري:

إذا قويت على عزلة النفس.

* دخل الجلوا ز - الشرط ي - بطعام لذ ي النون في المحبس، فنفض يده.

فقيل له:

- إن أخاك - ذا الكفل - جاء به.

فقال أبو الفيض:

- إنه على يد ظالم.

* وسأل رجل ذا النون:

رحمك الله! ما الذي أنصب - النصب: التعب - العباد وأضناهم؟

قال أبو الفيض:

ذكر المقام، وقلة الزاد، وخوف الحساب، ولِمَ لا تذوب أبدان العمال وتذهل عقولهم؟! والعرض على الله أمامهم، وقراءة كتبهم بين أيديهم، والملائكة وقوف بين يدي الجبار ينتظرون أمره في الأخيار والأشرار؟

* ما خلع الله عز وجل على عبد من عمده خلعة من العقل، ولا قلده قلادة أجمل من العلم، ولا زينه بزينة أفضل من الحلم، وكمال ذلك كله: التقوى.

* إلهي: لو أصبت موئلاً في الشدائد غيرك، أو ملجأ في النوازل سواك لحق لي أن لا أعرض إليه بوجهي عنك، ولا أختاره عليك لقديم إحسانك إليَّ وحديثه، وظاهر مِنَّك عليَّ وباطنها، ولو تقطعت في البلاء إربًا إربًا أو انصببت على الشدائد صبًا صبًا ولا أجد مشتكى لبثي غيرك ولا مفرجًا لما بي سواك فيا وارث الأرض ومن عليها، ويا باعث جميع من فيها وَرِّث أملي فيك مني أملي، وبلغ همتي فيك منتهى.

* احذر أن تقطع عنه - الله تبارك وتعالى - فتكون مخدوعًا.

فقيل له:

كيف ذلك؟

قال ذو النون المصري:

لأن المخدوع من ينظر إلى عطاياه فيقطع عن النظر إليه بالنظر إلى عطاياه.

* تعلق الناس بالأسباب، وتعلق الصديقون بولي الأسباب.

علامة تعلق قلوبهم بالعطايا منه العطايا، ومن علامة تعلق قلب الصديق بولي العطايا إنصاب العطايا عليه وشغله عنها به.

* ليكن اعتمادك على الله عز وجل في الحال، لا على الحال مع الله.

* اعقل، فإن هذا من صفة التوحيد.

* سأل رجلٌ أبا الفيض عند الفراق أن يوصيه:

قال ذو النون:

لا يشغلك عيوب الناس عن عيب نفسك، لست عليهم برقيب.

* إن أحب عباد الله إلى الله عز وجل: أعقلهم عنه، وإنَّما يستدل على تمام عقل الرجل تواضعه في عقله، بِحُسْنِ استماعه للمتحدث إن كان به عالمًا وسرعة قبوله للحق وإن كان ممن دونه، وإقراره على نفسه بالخطأ إذا جاء منه.

*** من ذكر الله على حقيقة نسى في جنبه كل شيء، ومن نسى في جنب الله كل شيء حفظ الله عز وجل عليه كل شيء، وكان له عِوضًا من كل شيء.**

* أكثر الناس إشارة إلى الله في الظاهر، أبعدهم من الله.

*** تجوع بالنهار وقم بالأسحار، ترى عجبًا من الملك الجبار.**

* الصدق سيف، فما وضع على شيء إلا قطعه.

* إن لله عبادًا كانت البلايا عندهم عم لاً، والرزائد عندهم سكرًا، والأحزان عندهم رطبًا.

*** من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم.**

* وسأل رجل أبا الفيض، عن الآفة التي يخدع بها المريد عن الله

عز وجل، فقال ذو النون المصري:

- برؤية الكرامات.

فقيل:

- فبم يخدع قبل وصوله إلى هذه الدرجة؟

قال أبو الفيض:

بوطء الأعقاب - مفرد العقب وهو: مؤخر القدم، والمعنى: تقبيل الأقدام - وتعظيم الناس له.

* من ذبح حنجرة الطمع بسيف اليأس، وردم خندق الحرص، ظفر بكيمياء الخدمة، ومن استقى بحبل الزهد على دلو المعروف، استقى من جب الحكمة، ومن سلك أودية الكمد جنى حياة الأبد، **ومن حصد عشب الذنوب بمنجل الورع أضاءت له روضة الاستقامة، ومن قطع لسانه بشفرة الصمت وجد عذوبة الراحة، ومن تدرع درع الصدق، قوى على مجاهدة عسكر الباطل، ومن فرح بمدحه الجاهل ألبسه الشيطان ثوب الحماقة.**

*** ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته.**

وقال أبو عصمة:

كنت عند ذي النون وبين يديه فتى حسن يملي عليه شيئًا، قال: فمرت امرأة ذات جمال وخلق، قال: فجعل الفتى يسارق النظر إليها.. قال:

ففطن ذو النون فلوى عنق الفتى وأنشأ يقول:

دع المصوغات من ماء وطين ... وأشغل هواك بحور عين

وقال:

من وجد خمس خصال رجوت له السعادة ولو قبل موته بساعة:

استواء الخلق، وخفة الروح، وغزارة العقل، وصفاء التوحيد، وطيب المولد.

وقال ذو النون:

أن لله خالصة من عباده، ونجباء من خلقه، وصفوة من بريته، صحبوا الدنيا بأبدانهم، وأرواحهم في الملكوت معلقة، أولئك نجباء الله من عباده، وأمناء الله في بلاده، والدعاة إلى معرفته، والوسيلة إلى دينه.

هيهات بعدوا وفاتوا، ووارتهم بطون الأرض وفجاجها، على أنه لا تخلو الأرض من قائم فيها بحجته على خلقه، لئلا تبطل حجج الله.

ثم قال: وأين؟.. أولئك قوم حجبهم الله عن عيون خلقه، وأخفاهم عن آفات الدنيا وفتنها، ألا وهم الذين قطعوا أودية الشكوك باليقين، واستعانوا على أعمال الفرائض بالعلم، وهربوا من وحشة الغفلة، وتسربلوا بالعلم لاتقاء الجهالة، واحتجزوا عن الغفلة بخوف الوعيد، وجدوا في صدق الأعمال لإدراك الفوت، وخلوا من مطامع الكذب ومعانقة الهوى، وقطعوا عرى الارتياب بروح اليقين، وجاوزوا ظلم الدجى، ودحضوا حجج المبتدعين باتباع السنن، وبادروا إلى الانتقال عن المكروه قبل فوات الإمكان، وسارعوا في الإحسان لمزيده، وجعلوه نصب أعينهم عند خواطر الهم وحركات الجوارح، ومن زينة الدنيا وغرورها، فزهدوا فيها عيانًا، وأكلوا منها قصدًا، وقدموا فضلاً، وأحرزوا ذخرًا، وتزودوا منها التقوى، وشمروا في طلب النعيم بالسير الحثيث والأعمال الزكية، وهم يظنون بل لا يشكون أنهم مقصرون، وذلك أنهم عقلوا فعرفوا ثم اتقوا، وتفكروا فاعتبروا حتى أبصروا، فأمسكوا ألسنتهم عن الكلام من غير عي خوفًا من التزين فيسقطوا من عين الله، فأمسكوا مع عقول، ويقين ثابت، وقلوب

شاكرة، وألسن ذاكرة، وأبدان صابرة، وجوارح مطيعة.

أهل صدق ونصح، وسلامة وصبر، وتوكل ورضى وإيمان.

عقلوا عن الله أمره، فشغلوا الجوارح فيما أمروا به من طاعة وذكر وحياء، وقطعوا الدنيا بالصبر على لزوم الحق، وهجروا الهوى بدلالات العقول، وتمسكوا بحكم التنزيل وشرائع السنن، ولهم في كل إشارة منها دمعة ولذة، وفكرة وعبرة، ولهم مقام على المزيد للزيادة، فرحمة الله علينا وعليهم وعلى جميع المؤمنين والصالحين.

قال: وسمعت ذا النون يقول:

إياك أن تكون في المعرفة مدعيًا، وتكون بالزهد محترفًا، وتكون بالعبادة متعلقًا.

فقيل له: يرحمك الله، فسر لنا بذلك.

فقال: أما علمت أنك إذا أشرت في المعرفة إلى نفسك بأشياء وأنت معري من حقائقها كنت مدعيًا، وإذا كنت في الزهد موصوفًا بحالة وبك دون الأحوال كنت محترفًا، وإذا علقت بالعبادة قلبك وظننت أنك تنجو من الله بالعبادة لا بالله، كنت بالعبادة متعلقا لا بوليها والمنان عليك.

وعن الشمشاطي قال: سمعت ذا النون يقول:

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام:

يا موسى كن كالجير الوحداني يأكل من رءوس الأشجار ويشرب من الماء القراح، إذا جنه الليل أوى إلى كهف من الكهوف، استئناسًا بي، واستيحاشًا ممن عصاني.

يا موسى، لأقطعن أمل كل مؤمل يؤمل في غيري، ولأقصمن ظهر من يستند إلى سواي، ولأطيلن وحشة من استأنس بغيري، ولأعرض عن من أحب حبيبًا سواي.

يا موسى، إن لي عبادًا إن ناجوني أصغيت إليهم، وإن نادوني أقبلت عليهم، وإن أقبلوا عليَّ أدنيتهم، وإن دنوا مني قربتهم، وإن تقربوا مني اكتنفتهم، وإن والوني واليتهم، وإن صافوني صافيتهم، وإن عملوا لي جازيتهم.

هم في حماي وبي يفتخرون، وأنا مدبر أمورهم، وأنا سائس قلوبهم، وأنا متولي أحوالهم، لم أجعل في قلوبهم راحة في شيء إلا في ذكري، فذكري لأسقامهم شفاء، وعلى قلوبهم ضياء، لا يستأنسون إلا بي، ولا يحطون رحال قلوبهم إلا عندي، ولا يستقر قرارهم في الإيواء إلا إليَّ..

ثم قال ذو النون: هم يا أخي قوم قد ذوب الحزن أكبادهم، وانحل الخوف أجسامهم، وغير السهر ألوانهم، وأقلق خوف البعث قلوبهم.. قد سكنت أسرارهم إليه، وتذللت قلوبهم عليه، فنفوسهم عن الطاعة لا تسلو، وقلوبهم عن ذكره لا تخلو، وأسرارهم في الملكوت تعلو.

الخشوع يخشع لهم إذا سكتوا، والدموع تخبر عن خفي حرقتهم إذا كمدوا، قد نسوا مرح الشهوات بحلاوة المناجاة، فليس للغفلة عليهم مدخل، ولا للهو فيهم مطمع، قد حجب التوفيق بينهم وبين الآفات، وحالت العصمة بينهم وبين اللذات، فياطوبى للعارفين، ما أغنى عيشهم، وما ألذ شربهم، وما أجل حبيبهم.

وقال ذو النون:

إن الله خالصة من عباده، ونجباء من خلقه، وصفوة من بريته، صحبوا الدنيا بأبدانهم وأرواحهم في الملكوت معلقة، أولئك نجباء الله من عباده، وأمناء الله في بلاده، والدعاة إلى معرفته، والوسيلة إلى دينه.

هيهات بعدوا وفاتوا، ووارتهم بطون الأرض وفجاجها، على أنه لا تخلو الأرض من قائم فيها بحجته على خلقه لئلا تبطل حجج الله.

ثم قال: وأين؟ أولئك قوم حجبهم الله عن عيون خلقه، وأخفاهم عن آفات الدنيا وفتنها، ألا وهم الذين قطعوا أودية الشكوك باليقين، واستعانوا على أعمال الفرائض بالعلم، وهربوا من وحشة الغفلة، وتسربلوا بالعلم لاتقاء الجهالة، واحتجزوا عن الغفلة بخوف الوعيد، وجدوا في صدق الأعمال لإدراك الفوت، وخلوا عن مطامع الكذب ومعانقة الهوى، وقطعوا عرى الارتياب بروح اليقين، وجاوزوا ظلم الدجى، ودحضوا حجج المبتدعين باتباع السنن، وبادروا إلى الانتقال عن المكروه قبل فوات الإمكان، وسارعوا في الإحسان تعويضًا عن الإساءة، ولاقوا النعم بالشكر استجلابًا لمزيده، وجعلوه نصب أعينهم عند خواطر الهمم وحركات الجوارح من زينة الدنيا وغرورها، فزهدوا فيها عيانًا، وأكلوا منه قصدًا، وقدموا فضلاً وأحرزوا ذخرًا، وتزودوا منها التقوى، وشمروا في طلب النعيم بالسير الحثيث والأعمال الزكية، وهم يظنون بل لا يشكون أنهم مقصرون، وذلك أنهم عقلوا فعرفوا، ثم اتقوا وتفكروا، فاعتبروا حتى أبصروا، فأمسكوا ألسنتهم عن الكلام من غير عي خوفًا من التزين فيسقطوا من عين الله، مع عقول صحيحة، ويقين ثابت، وقلوب شاكرة، وألسن ذاكرة، وأبدان صابرة، وجوارح مطيعة.

أهل صدق ونصح، وسلامة وصبر، وتوكل ورضى وإيمان.

عقلوا عن الله أمره فشغلوا الجوارح فيما أمروا به من طاعة وذكر وحياء، وقطعوا الدنيا بالصبر على لزوم الحق، وهجروا الهوى بدلالات العقول، وتمسكوا بحكم التنزيل وشرائع السنن، ولهم في كل إشارة منها دمعة ولذة، وفكرة وعبرة، ولهم مقام على المزيد للزيادة، فرحمة الله علينا وعليهم وعلى جميع المؤمنين والصالحين.

وقال ذو النون:

معاشرة العارف كمعاشرة الله، يحتمل عنك ويحلم عنك تخلقًا

بأخلاق الله الجميلة..

وقال:

أهل الذمة يحملون على الحال المحمودة والمباح من الفعل، فما الفرق بين الذمي والحنيفي، الحنيفي أولى بالحلم والصفح والاحتمال.

وعن غيلان المذكر قال: أخبرني ذو النون أن الناس على ثلاثة مقامات في الدنيا:

قوم اشتغلوا بمعادهم عن معاشهم.

وقوما اشتغلوا بمعاشهم ومعادهم.

وقوم اشتغلوا بمعاشهم عن معادهم.

فأما من اشتغل بمعاشه عن معاده فمقامه مقام الهالكين.

وأما من اشتغل بهما فمقامه مقام المخلصين.

وأما من اشتغل بمعاده عن معاشه فهو من العارفين.

وعن يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون يقول:

لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفًا من عقوبته، ولو قال لك اعمل ما شئت فلست آخذاك بذنب كان ينبغي أن يزيدك كرمه استحياء منه، وتركًا لمعصيته، أن كنت حرًا كريمًا عبدًا شكورًا، فكيف وقد حذرك.

وعن سليم بن موسى قال: قال ذو النون:

إن حقوق الله أثقل من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين.

وقال ذو النون:

الدنيا دنية، وحبها خطيئة، والدنو منها بلية.. الدنيا يكفي صفتها من وصفها، وإنما يعتبر بها من عرفها.. من طلب الدنيا سبقته، ومن

هرب منها لحقته، ومن عصى الدنيا أطاعته، ومن أطاعها عصته.. الدنيا فاعلة بك ما فعلت بأبيك، وزائلة عنك كما زالت عن أخيك.

وقال يوسف: قلت لذي النون في وقت مفارقتي له:

من أجالس؟

قال: عليك بصحبة من يذكرك بالله رؤيته، وتقع هيبته على باطنك، ويزيد في عملك منطقه، ويزهدك في الدنيا عمله، ولا يعصي الله ما دمت في قربه، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله.

* دوام الفقر إلى الله تعالى مع التخليط - التخليط في الأمر: الإفساد فيه - أحب إلى الله من دوام الصفاء مع العجب - التيه والكبرياء -.

* من تطأطأ - تواضع - **لقط رطبا**، ومن تعالى **لقي عطبا**.

* ومن صحبك ووافقك على ما تحب، وخالفك فيما تكره فإنَّما **يحصب هواه، ومن صحب هواه، فإنَّما هو طالب راحة الدنيا**.

*** كل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش، وكل محب ذليل، وكل خائف هارب، وكل راج طالب.**

* أنت مالك مقتدر وأنا عبد مفتقر، أسألك العفو تذللاً، فأعطينيه تفضُّلاً.

* من المحال أن يحسن منك الظن ولا يحسن منه المن.

* لم أر شيئًا أبعث لطلب الإخلاص مثل الوحدة؛ لأنه إذا خلا لم ير غير الله، فإذا لم ير غير الله لم يحركه إلا حكم الله، ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعود الإخلاص.

* قرأت في باب مصر بالسريانية فتدبرته، فإذا فيه:

يقدر المقدرون، والقضاء يضحك.

منع القرآن بوعده ووعيده :: مقل العيون بليلها أن تهجعا

فهموا عن الملك الجليل كلامه : فرقابهم ذلت إليه تخضعا

::

:

*** تنال المعرفة بثلاث:**

بالنظر في الأمور كيف دبرها؟

وفي المقادير كيف قدرها؟

وفي الخلائق كيف خلقها؟

*** إن الطبيعة النقية هي التي يكفيها من العظمة رائحتها، ومن الحكمة إشارة إليها.**

* سأل رجل ذا النون المصري عن سؤاله، فقال أبو الفيض:

قلبي لك مقفل، فإن فتح لك أجبتك، وإن لم يفتح لك فاعذرني واتهم نفسك.

* سُئِل ذو النون عن سماع العظة الحسنة والنعمة الطيبة، فقال:

مزامير أنس في مقاصير قدس بألحان توحد في رياض تمجيد بمطربات الغواني في تلك المعاني المؤدية بأهلها إلى النعيم الدائم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ثم قال:

هذا لهم الخبر، فكيف طعم النظر؟

وقال:

طوبى لمن تطهر ولزم الباب، طوبى لمن تضمر للسباق، طوبى لمن أطاع الله أيام حياته.

وقال:

حرمة الجليس أن تسره، فإن لم تسره فلا تسؤه، لم يكسب محبة الناس في هذا الزمان إلا رجل خفف المئونة عليهم، وأحسن القول

فيهم، وأطاب العشرة معهم.

وقال له رجل أوصني، فقال:

بم أوصيك؟.. إن كنت ممن قد أيد منه في علم الغيب بصدق التوحيد فقد سبق لك قبل أن تخلق إلى يومنا هذا دعاء النبيين والمرسلين والصديقين، وذلك خير لك من وصيتي لك، وإن يكن غير ذلك فلن ينفعك النداء.

وعن أحمد بن الحسن الزاهد قال: كان مكتوبًا على عكاز ذي النون:

لا يومك ينساك، ولا رزقك يعدوك، ومن يرغب إلى الناس يكون للناس مملوك.

وقال ذو النون:

إذا اطلع الخبير على الضمير فلم يجد في الضمير غير الخبير جعل فيه سراجًا منيرًا.

وقال:

الحسد داء لا يبرأ، وحسب الحسود من الشر ما يلقاه.

وقال:

من قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

وقال:

يأتي زمان وتكون الدولة فيه لأهل الدنيا على أهل الآخرة.

وقال:

العاقل يعترف بذنبه، ويجود بما لديه، ويزهد فيما عنده، ويكف أذاه، ويتحمل أذى غيره.

وقال:

الكيس من بادر بعمله، وسوف بأمله، واستعد لأجله.

وقال:

العز الذي لا ذل فيه سكونك عن السفيه، عطب السفيه بيده وفيه.

وقال في ختام كلامه يومًا:

ولم لا تذوب أبدان العمال وتذهل عقولهم، والعرض على الله أمامهم، وقراءة كتبهم بين أيديهم، والملائكة وقوف بين يدي الجبار ينتظرون أمره في الأخيار والأشرار؟.. ثم قال:

مثلوا هذا في نفوسهم، وجعلوه نصب أعينهم.

وقال:

قلوب أهل الهوى سجون البلاء، فإذا أراد الله أن يعذب البلاء حبسه في قلوب أهل الهوى، فيصيح إلى الله بالاستغاثة والخروج من قلوب أهل الهوى.

وقال:

مفتاح العبادة الفكرة، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى.

وكان رضي الله عنه يقول:

تواضع لجميع خلق الله تعالى، وإياك أن تتواضع لمن يسألك أن تتواضع له فإن سؤاله إياك يدل على تكبره في الباطن، وتواضعك له يكون له عونًا على التكبر.

وقال:

لا تتواضع لمتكبر فتذل نفسك في غير محل، وتكبر نفسه بغير حق.

وقال:

إنما يختبر ذو البأس عند اللقاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء،

وذو الأهل والولد عند الفاقة والبلاء، والإخوان عند نوائب القضاء.

وقال:

لم يكسب محبة الناس في هذا الزمان إلا رجل خفف المئونة عليهم، وأحسن القول فيهم، وأطاب العشرة معهم.

وقال:

من علامة سخط الله على العباد أن يخاف الفقر.

ومن حكمه:

لبست بالفقه ثوب الغنى ⁝ فصرت أمشي شامخ الرأس

وقال:

لا تسكن الحكمة معدة ملئت بالطعام.

وقال:

الكريم يعطي قبل السؤال فكيف يبخل بعده، ويعذر قبل الاعتذار فكيف لا يعذر بعده؟

وقال:

من المحال أن يحسن الظن ولا يحسن منه المن.

وقال:

من القلوب قلوب تستغفر قبل أن تذنب فيتاب عليها قبل أن تتوب.

وقال:

سيأتي على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس.

قال أبو نعيم: والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى الأماني، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

وقال:

إذا صح اليقين في القلب صح الخوف فيه.

وقال:

أكثر الناس إشارة إلى الله في الظاهر أبعدهم من الله، وأرغب الناس في الدنيا وأخفاهم لها طلبًا أكثرهم ذمًا عند طلابها.

وقال:

الاستئناس بالناس عن علامة الإفلاس.

وقال:

من عرف ربه وجد طعم العبودية ولذة الذكر والطاعة، فهو بين الخلق ببدنه وقدناء عنهم بالهموم والخطرات.

* جاء رجل إلى أبي الفيض، فقال له:

أوصني.

فقال ذو النون المصري:

إن كنت ممن أيد منه في علم الغيب بصدق التوحيد، فقد سبق لك قبل أن تخلق إلى يومنا ه ذا دعاء النبيين والمرسلين والصديقين وذلك خير لك من وصيتي لك، وإن يكن غير ذلك فلن ينفعك النداء.

* لكل قوم عقوبة، وعقوبة العارف، ارتطاعه عن ذكر الله.

* دارت رحى الإرادة على ثلاث:

على الثقة بوعد الله، والرضا، ودوام قرع - دق - باب الله.

* إذا صحت المناجاة بالقلوب، استراحت الجوارح.

* وقال إسحاق بن إبراهيم السرخسيّ بمكة:

سمعت ذا النون وفي يده الغلُّ - الجمع: الأغلال، وغل يده إلى عنقه - وفي رجليه القيد وهو يساق إلى المطبق والناس يبكون حوله وهو يقول:

هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه.

وكان فعاله حسن عذب طيب.

ثم أنشد:

لك من قلبي المكانُ المصونُ : كلُّ لوم عل يَّ فيكَ يَهُونُ
لك عزم ب أن أك ون قتيلاً :: فيكَ والصبرُ عنكَ ما لا يكونُ

ذو النون المصري وأحاديث رسول الله ﷺ :

أسند ذو النون أحاديث كثير ة، عن مالك بي الليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، وابن لهيعة... وغيرهم.

* قال أحمد بن صبيح بن رسلان الفيومي - بمكة - عن ذي النون المصري، عن مالك ابن أنس عن أنس، قال:

قال رسول الله ﷺ :

إن لله عز وجل أحبة من خلقه -.

قيل:

- من هم يارسول الله؟

قال عليه الصلاة والسلام:

أهل القرآن هم أهل الله وخاصته - (رواه أبو نعيم في الحل ية، عن أنس).

* وقال أحمد بن صبيح، عن ذي النون، عن سفيان بن عيينة، عن أبي بكر سمع أنس بن مالك، يقول:

قال رسول الله ﷺ :

يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع ا ثنان و يبقى واحد، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله - (أخرجه البخاري في

صحيحه، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، وا لإمام أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، والنسائي في سننه، عن أنس).

* وقال أحمد بن صبيح الفيومي، عن أبي الفيض، عن الفضيل بن عياض، عن الليث بن سعد، عن مجاهد، عن عبد الله بن عباس قال:

قال رسول الله ﷺ :

تجافوا عن ذنب السخي فإن الله تعالى آخذ بيده كلما عثر - (رواه الدارقطني في الأفراد، عن ابن مسعود، وأبو نعيم في ال حلية، عن ابن عباس).

* وقال محمد بن سعيد بن عبد الرحمن الخوارزمي، عن ذي النون بن إبراهيم، عن أبي جرية أحمد بن الحكم - من أهل البلقاء -، عن عبد الله بن إدريس، قال:

وفد على مولاي تجاملك البجة رجل من أهل الشام يستميحه، يقال له: عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، فقدَّم إليه طعامًا على مائدة فتحركت القصعة على المائدة، فلسندها الملك بوغيف فقال له عبد الرحمن بن هرمز:

حدَّثني أبو هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

إذا خرجتم من حج أو عمرة فتمتعوا لكيلا تثقلوا، و أكرموا الخبز فإن الله تعالى سخر لكم بركات من السماء والأرض، ولا تسندوا القصعة بالخبز فإنه ما أهانه قوم إلا ابتلاهم الله بالجوع - (رواه أبو نعيم في الحلية، عن أبي هريرة).

قالوا عن ذي النون المصري:

* قال ابن الجلا:

لقيت ستمائة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة: أحدهم ذو النون.

* قال أبو بكر محمد بن خلف المؤدب:

رأيت ذا النون على ساحل البحر، فلما جنَّ الليل، خرج فنظر إلى السماء والماء، وقال:

سبحان الله! ما أعظم شأنكما، بل شأن خالقكما أعظم منكما ومن شأنكما.

فلما تهور الليل - ذهب، وقيل: ولى أكثره وانكسر ظلامه - لم يزل ينشد هذه الأبيات إلى أن طلع عمود الصباح - الصبح -:

اطلبوا لأنفسكم مثل ما وجدت أنا
قد وجدت لي سكنًا ليس في هواه عنا
إن بعدت قربني أو قربت منه دنا

عنا: تعب.

دنا: اقترب.

* قال يوسف بن الحسن:

سمعت ذا النون يقول: بصحبة الصالحين تطيب الحياة، والخير مجموع في القرين الصالح، إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانك.

* وقال إسرافيل:

حضرت ذا النون في الحبس، وقد دخل الجلوز - الشرطي - بطعام له، فقام ذو النون فنفض يده، فقيل له:

- إن أخاك جاء به.

فقال:

- إنه على يدي ظالم.

* قال أبو الحسن صاحب الشافعي:

حضرت جنازة ذي النون، فرأيت الخفافيش تقع على نعشه وبدنه

وتطير.

* وقال محمد بن زياد:

لما مات ذو النون، رأيت على جنازته طيورًا خضراء، فلا أ دري أي شيء كان.

ومات عندنا بمصر فأمر أن يجعل قبره مع الأرض.

ذو النون والقرآن العظيم:

سأل رجلٌ ذا النون عن قوله تعالى: {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾} [سورة البقرة الآية: ٥٢].

قال أبو الفيض:

الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك با لمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال.

وكان ذو النون إذا قرأ قوله تعالى: {فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة الآية: ١٥٢].

قال:

من ذكر الله تعالى ذكرً ا على الحقيقة نسى في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا عن كل شيء.

وسُئِلَ أبو الفيض عن قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} [سورة البقرة الآية: ١٥٣].

فقال ذو النون:

الصبر هو: الاستعانة بالله تعالى.

وسئل ذو النون عن قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ} [سورة المائدة الآية: ١١].

{يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ }: يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك.

وكان ذو النون المصري إذا قرأ قوله تعالى: {فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ } [سورة فاطر الآية: ٣٢].

قال:

الظالم: الذاكر الله بلسانه فقط.

والمقتصد: الذاكر بقلبه.

والسابق: الذي لا ينساه.

وسُئِلَ أبو الفيض عن قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨} [سورة الانفطار الآيتين: ٦ - ٨].

قال:

خاطب بهذا منكري البعث.

وقيل:

ما الذي غرَّك حتى كفرت بالمتجاوز عنك؟

وقيل:

غرَّه شيطانه الخبيث.

وقيل:

غرَّ جهله وشيطانه المسلط عليه.

قال ذو النون المصري:

كم من مغرور تحت الستر وهو لا يشعر.

وكان أبو الفيض إذا قرأ: {وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا } [سورة مريم الآية: ٧٦].

قال:

الباقيات الصالحات: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

{مَّرَدًّا }: مرجعا وعاقبة.

وسأل رجلٌ ذا النون عن قوله تعالى: {فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠} [سورة الذاريات الآية: ٥٠].

فقال أبو الفيض:

ففروا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر.

وقرأ رجل قول الحق جل وعلا: {وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ} [سورة الحشر الآية: ٩].

ثم سأل ذا النون:

يا أبا الفيض: ما حد الزاهد عندكم؟

فقال ذو النون المصري:

ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القوت.

وسأل رجلٌ ذا النون عن قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا} [سورة التحريم الآية: ٨].

فقال أبو الفيض:

علامة التوبة النصوح ثلاث: قلة الكلام، وقلة الطعام - الصوم -، وقلة المنام - قيام الليل -.

وكان أبو الفيض إذا قرأ قوله تعالى: {إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦} [سورة العاديات الآية: ٦].

قال:

الهلوع والكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع.

وقيل:

هو الحقود الحسود.

وقيل:

هو الجهول لقدره.

وسئل أبو الفيض عن قوله تعالى: {عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾} [سورة المعارج الآية: ٣٧].

قال:

{عِزِينَ}: جماعات متفرقين.

وفاة ذي النون المصري:

روى المنذري في تاريخه عن أبي محمد بن رمان بن حبيب النضري قال:

لما مات ذو النون **رأيت على جنازته طيورًا خضراء** ، فلا أدري أي شيء كان؟ ومات عندنا بمصر، فأمر أن يجعل قبره مع الأرض.

ويقول الإمام الشعراني:

منهم أبو الفيض ذو النون المصري: واسمه ثوبان بن إبراهيم، وكان أبوه نوبيًا، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين، وكان رجلاً نحيفًا تعلوه حمرة وليس بأبيض اللحية.

ولما توفي بالجيزة حمل في قارب مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته، **ورأى الناس طيورًا خضراء ترفرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره**.

ويقول صاحب الكواكب الدرية:

ودفن بالقرافة، وقبره بها ظاهر مقصود بالزيارة، وعليه أنس ومهابة.

وكلموه وهو في النزع فقال:

لا تشغلوني فقد عجبت من كثرة لطف الله بي.

وقيل:

دخل فتح بن شخرف - بفتح الشين والراء، كان أحد العبَّاد السياحين ثم سكن بغداد - على ذي النون عند موته، فقال له:

كيف تجدك؟

قال أبو الفيض:

أموت وما ماتت إليك صبابتي :: ولا رويت من صدق حبك أوطاري
منا ي المنا كل المنا أنت لي مُنَى :: وأنت الغني كل الغنى عند أفتاري
وأنت مدى سُؤْلي وغاية رغبتي :: وموضع آمالي ومكنون إضماري
تضمن قلبي منك ما لا أبثه :: ولم أبد باديه لأهل ولا جار
فهب لي نسيمًا منك أحيا بروحه :: وجد لي بيسر منك يطرد إعساري
ألست دليل الركب إ ن هم تحيَّرُوا؟ :: وعصمة من أمسى على جرف هاري

ولما نزل على ذي النون، سأل الفتح بن شخرف ذا النون:

- كيف تجدك؟

قال أبو الفيض:

وما ليسرى الإطراق والصمت حيلة :: ووضعي على خدي يدي عند تذكاري
وإن طرقتني عبرة بعد عبرة :: تجرعتها حتى إذا عيل تصباري
أفضت دموعًا جمة مستهلة :: أطفي بها حرًا تضمن أسراري
فيا منتهى سؤل المحبين كلهم :: أبحني محل الأنس مع كل زواري
ولست أبالي فائتًا بعد فائتٍ ::

: إذا كنت في الدارين يا واحدي
:: جار ي
:

ومات ذو النون المصري يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعده سنة سبت وأربعين ومائتين، فدفن في مقابل أهل المعافر.

رحم الله المعلم المضري والحكم المرضي الناطق بالحقائق والفائق للطرائق، صاحب العبارات الوثيقة، والإشارات الدقيقة، أبا الفيض ذا النون المصري.

* * *